مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»

شوال 1440هـ – يونيو 2019م

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

من الشعراء الذين للعرب حضور في أشعارهم الشاعر البريطاني فرانسيس هيستينجز دويل Francis Hastings Doyle (١٨١٠–١٨٨٨). ولد دويل في ننابلتن Nunappleton في مقاطعة يوركشير لعائلة عسكرية اشتهر منها مجموعة من الضباط البريطانيين. تلقى تعليمه في إيتن و أكسفورد. و لدراسته القانون، أصبح مؤهلا في سنة ١٨٣٧ لممارسة المحاماة في المحاكم العليا البريطانية. صدرت له مجموعة دواوين منها قصائد متنوعة (١٨٣٤)، ومصيران (١٨٤٤)، وأوديب ملك طيبة (١٨٤٩)، وعودة الحرس الملكي (١٨٦٦). انتخب في عام ١٨٦٧ أستاذَ الشِّعر في جامعة أكسفورد. أفضل أعمال دويل هي الأغاني الشعبية القصصية، والتي تشمل «الخيط الأحمر للشرف»، و«الجندي البريطاني في الصين»، و«فقدان بيركينهيد»، أمّا قصائده الطوال فإنّ إحساسه الشعري الصادق فيها لم يكن بمستوى قدرته على التعبير، و«معظم شعره مبتذل» على حد قول أحد النقاد الذين درسوه وهو جون ويليام كوزين. ومع ذلك، حين ترجمتُ قصيدتين له، إحداهما كان يندب فيها فرسا أهداه السيّد سعيد بن سلطان البوسعيدي للملك ويليام الرابع، والثانية هذه القصيدة التي ننشرها هنا ويصف فيها فرسا عربيا لعله من أفراس السيد سعيد أيضا، وجدتُ شعره جزلا ولا يخلو من الصور العميقة. كما أنّ سلالة الرجل العسكرية دون شك أثرت في مواضيع كتابته حتى أنّ معظمها يدور حول الحروب محتفيا فيها ببسالة الجنود البريطانيين.

هجوم المملوكي

ألا ارْخُوا العِنانَ له وانظروا ** جوادُ العُروبةِ لا يُقهَرُ
سيعدو جَمَوحًا يَطيشُ به ** عَدوُّكمُ الصامتُ الماكرُ
وإنْ يَكُ ريشُهمُ ناصعًا ** كثلجٍ على شامخٍ يُبصَرُ
ومِرْجَلُهمْ مِنْ حَديدٍ، تَأجّجَ كالنَّارِ أشْعَلَها المُسْعِرُ
ومِدْفَعُهُمْ ليس غيرَ الهلاكِ** يَطوفُ بساحَاته يَهدِرُ
وزَهْوُهمُ وافتخارُهمُ ** وبَطشُهمُ، قطّ لا يُنْكَرُ
سَيكْسِرُ شوكتَهمْ، أطلقوه ** جَوادُ العُروبةِ، لا يُقْهَرُ.

*****

جَوَادُ العُرُوبةِ حُرٌّ جَسورٌ ** وقَدْ عَتّقَتْ دَمَّه الأعْصُرُ
رَعَاه سُليمانُ في خَيْلِه ** أصيلا فَريدًا؛ فلا يَكْثُرُ
حوى الحُسْنَ طُرًّا بأطرافِه ** وإنْ شِئتَ قُلتَ هو الثّائرُ
فأرْخوا العِنَانَ له وانظروا ** سَيَفْتَحُ ساحاتِهم أنْوَرُ
أكان رَصاصُهمُ هادرًا ؟** ستعلوه حَمْحَمَةٌ أهْدَرُ
وإنْ وَهَجُ الموتِ كان لَظىً ** سَيُطفِئُه العاصِفُ المَاطِرُ
سَيتْرُكُ قَتْلاهُمُ كَوْمَةً ** فأرْخُوا العِنَانَ له وانْظروا
جَوَادُ العُروبة لا يَجْفُلُ ** وإنْ أمَّه الموتُ لا يَنفِرُ
جَوَادُ العُروبة لا يَجْفُلُ ** أيَرْكَبُه فارِسٌ فاتِرُ؟!
وَرَبِّكَ لا...هاكَ أرواحَنا** يَطيرُ بها للوَغَى الطائِرُ
ونَحْنُ غَنيّونَ عَنْ مَظْهَرٍ ** تَزيّى به للعِدَا العَسْكرُ
عَطاشَى إلى المَوْتِ لا نَرْتوي ** بِغَيْرِ الدِّمَاءِ لَهُمْ تَنْفُرُ
فمن يُوقِفُ الزَّحْفَ؟ فُرْسانُنا ** جِيَادَ العُروبة تَسْتَنْفِرُ
تَحَدَّوْا إنْ اسْطَعْتُمُ الرِّيحَ والبَرْقَ يَحْدوهما الغضبُ الأحْمَرُ
وصُدّوا إنْ اسْطَعْتُمُ النارَ يَقْذِفُها راعِدًا جَبَلٌ كاسِرُ
ولكنْ، رِجَالَ المَزامِيرِ، هذا ** جَوَادُ العُروبةِ لا يُقْهَرُ
أتاكُمْ يُزَلْزِلُ أسْوَارَكَمْ ** فلا عاصِمَ اليَوْمَ إنْ تُدْبِروا
ويا إخْوَتي أقْبِلوا؛ فالليالي ** طوَاها – لَنَبْقَى– غَدٌ مُقْمِرُ
وقَبْل فَوَاتِ الأوَانِ اهْجُمُوا ** فإنّ السَّوانحَ لا تُهْدَرُ
كِنِمْرٍ يَكِرُّ على شَادِنٍ ** خُذُوهمْ على بَغْتَةٍ وَاظْفَروا

hilalalhajri@hotmail.com

- الدنونة الرابعة
- لويدجي بيرزانو

- تاريخ عاطفي للمعرفة
- فرانسواز فاكيه

- استراتيجية وتكتيكات جيش نابليون...
- أليغ سوكولوف

- الأسياد وإدارتهم
- كيتلين روزنتال

- أنا حَنِّبعل.. يوميات قائد
- جوفاني بريزّي

- التيارات السياسية في الهند
- د. راجا شيكهاران

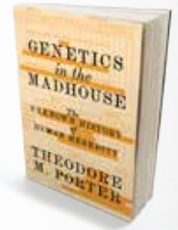

- التاريخ غير المعروف...
- ثيودور بورتر

- إلى أين ذهب طفلي؟
- ناثان شيفريس

- لا أحد يريدهم
- ليندا بولمان

- الشرق في الذاكرة الحضارية الألمانية
- زهير سوكاح

إصدارات عالمية جديدة

صفحة 22 و 23

الدنونة الرابعة
لويدجي بيرزانو

محمد الشيخ *

يقوم مفهوم «الدنونة» في تقابل مع مفهوم «الدينونة». ويقصد بالمفهوم الأول دلالة الإقبال بالهمة وبالكلية على الدُنيا، وذلك تلقاء الإقبال بالعزم نفسه على الدين وعلى الآخرة. وتُعد سمة «الدنونة» تلك إحدى أبرز سمات الحداثة، وذلك من حيث صير إلى ملاحظة أنَّ المجتمعات الغربية أمست أكثر فأكثر إقبالاً على الدنيا، وأكثر فأكثر إدبارا عن الدين. وفي العقود الأخيرة، أمسى موضوع «الدنونة» هذا يحظى باهتمام كبير، سواء من لدن أهل العلوم الاجتماعية أو من طرف أصحاب العلوم الإنسانية.

وقد دار نقاش عميق، في العقود القليلة الأخيرة، بين أولئك الذين يرون أنَّ المجتمعات الفائقة الحداثة أمست تشهد . في تمرد ضد الدنونة المتطرفة . على «عودة المُقدس»؛ وبالتالي على عودة «المجتمع الدينوني»، وأولئك الذين يرون، بالضد، أنها مجتمعات سائرة إلى مزيد من الدنونة؛ أي أنها «مجتمعات مدنونة» أو «دنيوية». ترى، ما حقيقة مجتمعات الحداثة الفائقة هذه: أهي مجتمعات الإقبال على الدين؟ أم هي مجتمعات الإقبال على الدنيا؟ هو ذا السؤال الجوهري الذي يطرحه هذا الكتاب. ومؤلفه أميل إلى الطرح الثاني. لكنه لا يرى أنَّ الدين من الآفلين، وإنما هو لا محالة من المتحولين. كما أنه لا يرى أن هذا هو أول عهد للمجتمعات الغربية بالدنونة، وإنما هو عهدها الرابع بها.

المدخل:

ينطلق المؤلف . وهو عالم اجتماع وقس كاثوليكي إيطالي (١٩٣٩-). من ملاحظة تمتح من عالم العمران والبنيان: ظل طراز بناء العوالم الحضرية والقروية الغربية المسيحية، لردح طويل من الزمن، دائرا على مركز وسط هو الكنيسة؛ وذلك بما كان يشي عن الهوية الدينية لهذا العالم. وهي تلك الهوية القائمة على الممارسة المنتظمة لشعائر الجماعة المؤمنة. لكن، ومنذ عقود من الزمن، حدثت تحولات كان من شأنها أن غيَّرت هي هذا الطراز الأوربي التقليدي. وقد تمثلت في أمرين اثنين: أولهما؛ حركة الدنونة. وثانيهما؛ التعددية الدينية. فأما الأولى، فقد ميزت بين «المقدس» و«الدنيوي»، وبين «الديني» و«الروحي»، وأحدثت وسائل جديدة للاعتراف بالفرد وللشرعنة لخياراته في الحياة. وأما الثانية، فقد هجّنت الديانات التقليدية الأوربية بالتقاليد والحركات الدينية الشرقية، أولاً، ثم بالإسلامية، ثانياً. والأثر العام لهذا الأمر هو ما أمسى يسميه علماء الاجتماع . وقد استعاروا تعبيرا مستلا من علم الاقتصاد . «السوق الدينية».

على أنَّه اليوم، ما عاد مجال من مجالات الحياة الحديثة . أكان اقتصاديا أم اجتماعيا أم ثقافيا أم دينيا . لا يوجد في قلب تطور شديد التعقيد؛ أكان يهم ذلك الفرد أم الجماعة. وإلى هذا التعقيد يحيل أولئك الذين يسميهم المؤلف «مؤولي المجتمع الحاضر» من كبار علماء الاجتماع في زمننا . بومان، بيك، جيدنز، داهرندورف . الذين باتوا يَسِمُون المجتمع الحالي بمياسم جوهرية: أكان ميسم «الحرية» أم «الاختيار» أم «انعدام اليقين» أم «الخطر» أم «السيلان».

غير أنَّ المؤلف يقف على سمة صارت أكثر حضورا في المجتمعات الحديثة: ما عادت مواقف الفرد وسلوكاته ترتبط بوضعه داخل البنيان الاجتماعي، وإنما أمسى الأمر دائرا أكثر فأكثر على اشتغال الفرد بنفسه لنفسه على نفسه لإقامة مشروعه «الفردي» في الحياة بمعزل عمَّا ورثه عن أسلافه؛ بما في ذلك ما تعلق بحياته الدينية. ومن هنا، كان المفهوم الجوهري في الكتاب هو مفهوم «الأفقية التدينية» الذي ينهض ضد مفهوم «العمودية» أو الشاقولية« التدينية»؛ بمعنى أن الحداثة الفائقة شاهدة على أفول نمط التدين بالوهب، حيث صار التدين بالكسب، وما عاد هو تدينا خطيا يورث أبا عن جد، وإنما صار التدين اختيارا أفقيا. وهو مفهوم يمتح من تقابل أكبر في الكتاب هو التقابل بين «المجتمع العمودي»؛ أي المجتمع التقليدي القائم على توارث القيم والسلوكات والأديان والمعتقدات، و«المجتمع الأفقي» القائم لا على التوارث ولا على الوهب، وإنما على اجتهاد المرء في إدارة أسلوب عيشه كما يريد؛ أي بما كسبت يداه.

الفصل الأول:

من أسلوب عيش واحد إلى أساليب عيش متعددة

مدار هذا الفصل على مفهوم «أساليب العيش». وقد فهم منها أنها أنماط ينظم تبعا لها الأفراد وجودهم. وأساليب العيش هذه نماذج عيش اختيارية يصطنعها الفرد لنفسه يعبر من خلالها لذاته ولغيره عمن يكون، ويوصل إلى الغير من هو، ومن يشبه أو لا يشبه، وعم يرغب أن يميز ذاته؛ وذلك بما يمنح معنى موحَّدا لحياته ولسلوكه. أساليب العيش تلك أمر مرتبط بمجتمع اليوم، حيث ما بات سلوك الأفراد يفسر باستخدام تعابير القيم والإيديولوجيات والعقائد، بل وحتى الوضع الاجتماعي، بقدر ما أضحى يفسر بالأذواق الشخصية وبالحساسيات الفردية وبالاهتمامات الذاتية. وهو ما يسميه المؤلف: «إضفاء طابع إستتيقي «جمالي» على العيش»: كل واحد يحاول أن يصنع بعيشه ما يحلو له، عن جماعته بمعزل، وعن ديانته بمنأى، وعن هويته بمعزل.

والحال أن هذا الأمر المستجد يخالف ما دأبت عليه المجتمعات التقليدية؛ حيث كانت «الخيارات» المتاحة للأفراد في اتباع «أساليب عيش» معينة خيارات محدودة جدا؛ وذلك لأن الحياة كانت عوائد ومألوفات واتباعات.

هي ذي السيرورة التي يركز عليها الفصل الأول. وصاحبه يختمه بالتساؤل التالي: ما الذي سوف يتطور، يا ترى، عن هذه الروابط والأشكال الاجتماعية ونماذج الفعل داخل سياقات هكذا أمسى حالها؟

الفصل الثاني:

الثورة الروحية.. تنويع أساليب العيش

لئن كان الفصل الأول دار على «أساليب العيش» في المجتمعات غير التقليدية، فعمم ولم يخصص، فإن الفصل الثاني ركز على «الهويات الدينية» وما ينتج عنها من «أساليب عيش» متعددة. ذلك أن الأديان والكنائس وأهل الديانات أنفسهم، في ممارساتهم واعتقاداتهم، ما عادوا بمنأى عن هذه السيرورة. وكل البحوث الدائرة على «الظواهر الدينية المعاصرة» تتفق على أنه على «عهد الحداثة المتقدمة»، لم تُلْغَ «الأنساق القيمية» المتنوعة إلغاء، وإنما صارت تُدرك على أنها موضع خيار. ذلك أن تأثير التحولات الاقتصادية والتقاليد الدينية الكبرى لا يزال مستمرا في فرض سطوته على الفرد، إلا أن أثر هذه التحولات صار ينكفئ شيئا فشيئا. وقد لاحظ أحد الباحثين الاجتماعيين الكبار، بعد أن تتبع تحول «نسق القيم» لعقود، أن ثمة «ثورة صامتة» في مجال الأخلاق، حيث انتُزعت من الأخلاق العامة الكثير من المحاذير والمحرمات والممنوعات، واختُزلت إلى صلبها الأصيل: احترام الأغيار. والأمر أولى أن ينطبق على «الدين» الذي جرِّد من كل مفاهيمه الحرفية التي لا يمكن أن تخضع إلى التأويل. وقس على ذلك السياسة التي جرّدت من كل ما لا يحترم كرامة المواطن ... وكل هذه سيرورات

تحيل على مفهوم «كرامة الشخص» وتقود إلى حرية للفرد واستقلال أكبرين وأوسع مدى.

فأية روابط وأشكال اجتماعية وأساليب عيش سوف تتطور داخل ديانات المستقبل؟ وهل سوف تُضعف أساليب العيش الأفقية من شأن الأشكال التقليدية للانتماءات الدينية المستندة إلى إعادة الإنتاج «العمودية» للهويات والعقائد والممارسات الدينية؟ وهل ستنتشر أكثر فأكثر أشكال الانتماء المختارة من لدن الأفراد أنفسهم لا تلك التي اختيرت لهم وما كانت لهم الخيرة من أمرهم؟ وهل ستصير الانتماءات غير المختارة ولا الطوعية أشد فأشد ضعفا واشتكالا في المستقبل؟ أم هل، يا ترى، سوف تصدق على «الدين» نفسه نبوءة عالم الاجتماع الألماني الشهير جورج زيمل (١٨٥٨-١٩١٨) القائلة بأن المجتمع المبني على أسلوب واحد من العيش سوف يتطور، بأثر من الحداثة، إلى مجتمع ينهض على تعدد أساليب العيش؟ هي ذي الإشكالات التي يطرحها الانتقال من «المجتمعات الشاقولية» إلى «المجتمعات الأفقية».

الفصل الثالث:

الدنونة الرابعة

هنا نأتي إلى كبد المسألة في الكتاب. وهي: ما المقصود بهذه التسمية العجيبة الغريبة: «الدنونة الرابعة»؟ القصد بها ما ذكرناه سابقا . وهو استقلال وتنوع «أساليب العيش» الديني في المجتمعات الفائقة الحداثة. لكن، لمَ كانت هي دنونة رابعة؟ يرى المؤلف أن «الدنونة الأولى» حدثت في عالم الإغريق القدامى، حين تم الانتقال من الأسطورة «الميتوس» إلى العقل «اللوغوس». لكن هذا العقل الإغريقي بقي مجردا، فاحتاج الأمر إلى «الدنونة الثانية» . وهي تلك التي حدثت بالانتقال من اللوغوس المجرد . الكلمة . إلى المسيحية من حيث هي ديانة التجسد والتشخص، ومن حيث أن اللوغوس فيها يمسي شخصا ويكتسي لحما ودما وعظاما، ومن حيث أن كل الناس أمسوا بالعقيدة متساوين يطمحون إلى تحقيق حياة طيبة وإلى النجاة بأنفسهم. ثم كانت «الدنونة الثالثة» . وهي الدنونة التي حدثت في فجر العصر الحديث؛ حيث تم الانتقال من هيمنة الدين على سائر مناحي الحياة إلى نجاح العلم في تعزيز طريقه واستقلاله. وأما «الدنونة الرابعة» . وهي القائمة حاليا . فتتعلق بدنونة أساليب العيش الفردية بالانتقال من «المجتمع العمودي» إلى «المجتمع الأفقي». ذلك أن استقلال العلم، الذي قال به ماكس فيبر، امتد ليشمل أيضا استقلال ممارسات الفرد «من المهد إلى اللحد»؛ بحيث باتت دائرة حاجات الفرد وانتظاراته تطالب بحقها في أن تصير مقبولة ومعترفا بها عموميا، باعتبارها حقا أساسيا من حقوق الإنسان: حقي في أن أصنع بحياتي ما أشاء بما أشاء وفق ما أشاء، بصرف النظر عن ماضي أسرتي وعن ملتي وعن قبيلتي وعن وضعي الاجتماعي ...

والحال أن تدنون أساليب العيش إنما يقتضي أن هذه الأساليب ما عادت مرتهنة ومشدودة إلى الديانة التي ينتمي إليها الفرد، بل صارت أكثر فأكثر ارتباطا باختيار هذا الفرد عن كل ارتباط شاقولي بمنأى ومبعد. وفي هذه السيرورة، ما يلاحظه المؤلف هو تنامي النزوع إلى إضفاء الأفراد طابعا شخصيا خاصا على أساليب عيشهم، وتنامي وعيهم الذاتي بهذه الأساليب في العيش المتنوعة المتعددة، واعتماد روحانيات وديانات فردية بمعزل عن إطار تقليد ديني معتمد رسميا.

على أن هذه التحولات ما كانت هي بالمنبئة عن «موت الفرد الديني»، وإنما أضحت تشي بنزوع فردي إلى أن يشيد الفرد مشروع حياته الدينية الخاصة به. كما أن «مجتمعات الجماهير» هذه، وعلى خلاف ما يذهب إليه العديد من الباحثين الاجتماعيين، ما كانت فقط مجتمعات «التطابق الرمادي»، بحيث إن البشر تشابه علينا، وإنما هي أيضا مجتمعات «التمايز والاختلاف».

وهكذا، باتت اليوم تشكل في الحقل الديني طرازات روحية. وهي طرازات جذابة بفعل طبيعتها الحرة وأفق ممارساتها المشخصنة. وقد أدى ذلك إلى بروز أساليب حياة دينية مختلطة ممتزجة وانتقائية يختارها الفرد لنفسه الخيرة، كجمعه، مثلا، بين البوذية والمسيحية ... وقد لعبت وسائل الاتصال الجماهيري والشبكة العنكبوتية دورا أساسيا في هذا الأمر؛ بحيث أضعفت هي أكثر فأكثر الممارسات والسلوكات الدينية المكتسبة بالولادة. وبالجملة، تمثل أساليب العيش الجديدة هذه ديانة شكلها الناس الذين اختاروها على أساس حاجاتهم واهتماماتهم وحساسياتهم الشخصية ...

الفصل الرابع:

معنى الدين في العصر المدنون

يحلل هذا الفصل الأشكال الدينية في سياق عصر الدنونة.

وهو العصر الذي يعتبره البعض عصر التخلي عن التبعية الدينية لصالح الاستقلالية الروحية. ويعد هذا الفصل بمثابة محاولة للإجابة عن تساؤل الفيلسوف السياسي الفرنسي الشهير مارسيل غوشيه : ما الذي، يا ترى، سوف يحدث عندما تهجر الأرباب العالم، عندما تتوقف عن أن تزوره لتعلن «غيريتها» عنه؟ أفهل، يا ترى، العالم نفسه هو الذي سوف يتوقف عن أن يتجلى لنا بوسمه «غيرا» غريبا عنا، وسوف يبدي لنا عن عمق متخيَّل سيمسي مجالا لاستقصائنا واستكشافنا؟

هذا عصر الدنونة، وهذه أعماله. وهو عصر يشهد على تدنون الثقافة وتبدي الحياة الروحية الجديدة؛ وذلك بسبب من التعالق الذي حدث بين «الدنونة» نفسها و«الدين» وقد اكتسى حلة جديدة. ذلك أن مختلف أشكال الدنونة لم تفرغ الدين من التجارب الدينية، وإنما غيرت طبيعة ترابطاته مع تعدد العوالم المدنونة. وبالجملة، تحول جزء من المقدس التقليدي إلى أشكال جديدة مفردنة ومستقلة عن كل مضمون عَقَدي محدد، كما صارت الحياة الروحية تحيا على تخوم الأديان التاريخية. وها هي ديانة المستقبل تسير نحو بلورة السمات الأربع التالية:

ضعف الهويات الدينية الإثنية والموروثة؛

استقلال التجربة الدينية عن كل انتماء ديني تقليدي؛

العيش في إطار من التعددية الدينية؛ إذ أمست التعددية سمة العصر الدنيوي البارزة؛ وذلك بحيث أضحى بعض علماء الاجتماع يفضلون الحديث عن «العصر التعددي» (بيرجر) بدل الحديث عن «العصر الدنيوي» (تايلور). فما عادت ثمة ديانة مطلقة بالمرة.

الانتقال من «الأديان» إلى «الروحانيات». لقد بات «التدين» يتخذ شكل «تـروحـن»؛ أي شكل اتباع سبيل الحكمة الإشراقية القائمة على مفاهيم «النجاح المادي» و«التناغم الأصلي» و«الثقة في النفس» و«طلب رغد العيش» و«نشدان الاكتمال للنفس»... وهو ما صار يطلبه بشر أمسينا نسميهم اليوم باسم «المستهلكين الروحيين». هو ذا الشكل الأخير لتحول المقدس في زمن الحداثة الفائقة.

الكتاب: الدنونة الرابعة: استقلال أساليب العيش الفردية.
المؤلف:لويدجي بيرزانو.
دار النشر: راوليدج فوكيس.
سنة النشر:٢٠١٩.
لغة النشر:الإنجليزية.

*** أكاديمي مغربي**

تاريخ عاطفي للمعرفة
فرانسواز فاكيه

سعيد بوكرامي *

يأتي كتاب «تاريخ عاطفي للمعرفة»، للمؤرخة الفرنسية فرانسواز فاكيه، بعد مسار علمي من البحث التاريخي والإنثربولوجي تجلّى في أكثر من أربعة عشر كتابا مُهمّا عن أصول اللغة اللاتينية والأسس المعرفية في أوروبا، وعن طقوس نقل المعرفة في أكاديمية الجمهوريين، ثمَّ عكفتْ بعد ذلك على الوسائل التي تُصاحب البحث المعرفي؛ أي: كيف اشتغل العلماء في القرن السادس عشر حتى القرن الحادي والعشرين، وأخيرا كرست فرانسواز نشاطها البحثي للعواطف التي تحرك وتنشط وتنتج البحث العلمي. وقد وجدت بدءا من مقدمة الكتاب أن ميكانيزمات وجدانية حاسمة تتحكم في إنتاج المعرفة؛ مثل: المتعة، والملل، والخوف، والأمل، والحماس، واليأس، والسعادة، والمعاناة، سلسلة كاملة من العواطف في الفروق الدقيقة والتوليفات الحاضرة بقوة في الروتين اليومي للعلماء والباحثين سواء بالأمس البعيد في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أو كما هي الحال اليوم، في التخصصات جميعها؛ إذ لم يعد الباحثون اليوم يظهرون كآلات للتفكير أو أشخاص ذوي أفكار خارقة، ولكن ككائنات من لحم ودم تعمل في عالم مترع بالمؤثرات السلبية والإيجابية.

ويتمثل طموح المؤرخة فرانسواز فاكيه في إبراز الافتراض الجليّ، الذي تجاهله البحث زمنا طويلا ومفاده أن «العلم إنتاج إنساني، وبالتالي لن يكون إلا إنسانيا» (ص:٣٢). وبهذا الكتاب الجديد، تقترح المؤرخة تسليط الضوء على الجزء غير القابل للاختزال، وهو الجانب الذاتي لدى العلماء الذي لا يزال حاضرا في المنجزات العلمية، وعلى الأخص الدور الذي تلعبه العواطف في جوهر المعرفة. وبعد دراساتها أيضا حول اللاتينية والشفهية وحول العلاقة بين السيد وتابعيه، تواصل فرانسواز فاكيه مشروعها لتأسيس «بيئة للمعرفة» بمعنى آخر، اعتبار العالَم العلمي «بيئة» تتجسد في الحياة اليومية للعلماء. يتم تعريف مفهوم «البيئة» بإيجاز على أنه مجموعة من «الروابط المتعددة والمتبادلة» بين الناس والأشياء ومؤسسات العالَم العلمي (ص:١٧-١٨). من المعلوم أنَّ هذا «الوسط/البيئة» يظل غير مرئي للباحث نفسه طالما لا يهتم به، أي أنه ما دام لا يعترض عليه في خطوة انعكاسية. هذا الاعتراض هو الذي تقترحه فرانسواز فاكيه، إذا كان الجانب العاطفي للنشاط العلمي موجودًا بالفعل في أعمالها السابقة، إلا أنه كان يظهر دائمًا بشكل محتشم، لكن في كتابها الأخير استعادته بتركيز كبير، عازمة على توفير الوسائل المعرفية والمنهجية للبرهنة على الوجود الكلي والفاعل للعواطف في العلوم. وفي مقابل التاريخ الفكري «المجرد والزئبقي»، تقترح المؤلفة كتابة تاريخ مادي «ملموس ومجسد» للمعرفة (ص:١١). وتحقيقًا لهذه الغاية، وحسب خطة الكتاب، ارتأت المؤرخة أنه من الضروري إجراء «بحث نوعيّ» (ص:١٠) حول «حيوات وأعمال» محددة ضمنيًّا في الحياة اليومية العادية للباحث، وتتشكل من اللقاءات والاجتماعات وأيام وليالي البحث في المكتبة لتحديد ملفات النتائج أو توقعاتها -على عكس المراحل الاستثنائية للمعالجة والاستكشاف (ص:١٧). وتختار المؤلفة أن تنظر في الوثائق الشخصية -اليوميات والمراسلات والمذكرات...- التي كتبها عدد من العلماء الفرنسيين وغير الفرنسيين في مختلف التخصصات -الطب والتاريخ والأنثروبولوجيا...- خلال فترة «القرن العشرين الطويل حتى يومنا هذا» (ص:١٣). إذا كان عنوان الكتاب قد أعلن عن فترة زمنية تبدأ من القرن السابع عشر؛ فإنَّ الفصلين ٦ و٧ يهتمان فقط بالعصر الحديث. ومع تركيزها على تفاصيل الممارسة العلمية التي كشفت عنها هذه النصوص، فإن المؤرخة تعتزم الرجوع إلى ما دون المنشور العلمي للعثور على «البقايا العاطفية» التي تؤشر على ذاتية الباحث وحضور حياته اليومية في منجزه العلمي (ص:١١).

وينتظم الكتاب في ثلاثة أقسام رئيسية؛ القسم الأول: «بيئة عاطفية» وهو «تأريخ خارجي» للمعرفة، وهو مُقسَّم بدوره إلى ثلاثة فصول، تتناول بالتتابع الأشخاص والفضاءات والوسائل العلمية. تهدف لرد الاعتبار إلى شخصية الإنسان الأكاديمي وإزاحة التصور المعقد الذي يحيط به، وتقدم فرانسواز فاكيه في البداية صورة عن العالم ككائن عاطفي (الفصل الأول)، موضحة ذلك من خلال اعتمادها على الدراسات الاجتماعية وحول ما بعد إنجاز الأطروحة، وكذلك شهادات التوظيف في كوليج دو فرانس التي وجدتها في يوميات موريس هالبواش أو التاريخ الذاتي لجورج دوبي، هذا المؤلف الذي يصف الحياة المهنية الجامعية كسلسلة من الكرب والقلق، تتكلل أحيانا بمتعة النجاح، وفي أحيان أخرى تنتهي إلى الحزن والإحباط.

وفي معرض إشارتها إلى «أبناء سقراط»، تناقش فرانسواز فاكيه الروابط العاطفية التي تتناسج داخل المجتمع العلمي. وهي بالفعل تتجسد في علاقات التأثير أو الانتماء، متوقفة بشكل خاص عند الإعجاب أو الإثارة التي أبداها طلاب بيير بورديو، نحو إنتاجه المعرفي. وتتميز هذه الروابط العاطفية أيضًا بالصدمة والحزن عند استبعاد أحد الأعضاء. وتوضح المراسلات الطويلة التي جرت بين مارك بلوخ ولوسيان فيفر دور الصداقة العلمية؛ إذ تعد هذه العلاقة محركًا أو مصدرًا للتنافس. بعد العالم، يأتي فضاء المعرفة الذي يصور كمكان عاطفي (الفصل ٢)؛ حيث العادات والمعرفة المدمجة، على وجه الخصوص، هي مولدات المسرات والانزعاج. حيث تعطي المؤلفة، في مقطع يبدو أنه يتغذى على تجربتها الشخصية، الذي تتحدث فيه عن نقل المكتبة الوطنية ريشيليو من موقعها الحالي في الدائرة الثالثة عشرة، وما أسفر عنه ذلك من متاعب وإحباطات، بل الغضب، لأن اختلال وظائف هذا الفضاء ربما تَسبب أيضا في إجبار القراء على التكيف مع ظروف جديدة قد تفضي إلى قطيعة عاطفية مع طقوس يومية كانت من قبل خصبة ومنتجة.

وتستحضر المؤلفة أيضًا مذكرات ماري كوري، وأيضا مذكرات فرانسوا جاكوب، وارتباطهما الحميميّ بالمختبر، والإرهاق والتوتر الناجم عن ليال متتالية من البحث والتجارب، وتعبيرهما عن الانزعاج والقلق من فضاء اشتغالهما الذي أخذ يتقلص تدريجيا إلى أن أصبح صغيرا جدا وفوضويا جدا. إن العمل الميداني تتغير ظروفه، وتتباين عواطفه بين الجمال والخشونة والنجاح والإحباط حسب الفضاء؛ مثلا: فضاء المكتب يتأرجح بين الراحة، والعزلة أو الاختلاط وكثرة اللقاءات -هذا الفضاء الذي يفضل العلماء تركه وراءهم، كما يتضح على التوالي من خلال شهادات مختلفة لعلماء الأنثروبولوجيا، بما في ذلك موريس غودلييه، من خلال ما أورده من أوصاف لمكتبي كلود ليفي شتراوس ومارسيل موس اللذين كانا يفضلان العمل الميداني والتنقل.

أخيرًا.. وفي سياق الترتيب المادي للمعرفة، تُعتبر وسائل العمل العلمي من زاوية الاستثمار العاطفي الذي تمثله للعالم ذات تأثير عاطفي قوي على مسار البحث العلمي (الفصل ٣). لا سيما الكتب والوثائق الشخصية والملاحظات الميدانية التي تعالجها المؤلفة: على سبيل المثال يفسر بلوخ، لصديقه فيفر الألم الناجم عن فقدان مكتبته في العام ١٩٤٢. اثنان من علماء الإنثروبولوجيا الأمريكيين يركزان على شعورهما بالقلق أكثر من إحساسهما بالرضا في ملاحظاتهما الميدانية. وتكشف لنا أعمال هنري جان مارتن أو أنتوني غرافتون حول المطبوعات عن انزعاجهما من القراءة أو الشغف بالملاحظات الهامشية. أخيرًا، تتحدث فرانسواز فاكيه، بمساعدة الأعمال السوسيولوجية عن «القلق من الكمبيوتر» الذي تثيره هذه التكنولوجيا الجديدة لدى العديد من الباحثين. تتيح لها هذه النظرة «الخارجية» أن «تصف» -باستخدام مجموعة واسعة من الأمثلة- المشاعر المتعددة والمتناقضة، التي غالباً ما تكون متضاربة، والتي تستفز الباحثين أو الذين يوظفون فضاءاتهم ووسائلهم في سبيل البحث العلمي.

ويقترح القسم الثاني المعنون بـ«العواطف في العمل» إلقاء نظرة من داخل الحياة العملية اليومية التي تحدثت عنها المؤلفة سابقًا، لتسليط الضوء على المدخرات العاطفية التي تستعمل في المنجزات العلمية -ما تصفه المؤلفة بـ«التاريخ الداخلي»، المشاعر اليقظة، والانفعالات المصاحبة للأبحاث العلمية اليومية.

ويتكون هذا القسم من فصلين يعتمدان على «تقاسم» متعمد وتلقائيّ (ص:١٥٥) بين شخصيتين بارزتين في البحث العلمي؛ هما: الباحث والمؤلف. في البداية يتأثر (الفصل ٤) الباحث خلال حياته ببعض الأعمال. يذكر دوبي القراءة «الشغوفة» لبلوخ أو التي شكلتها بعض اللقاءات كما يستحضر كذلك بيير شونو وفريدريك مورو اللذين كانا منبهرين ومولعين بالمحاضرات التي كان يقدمها فرناند بروديل. ثم يقود دوبي أبحاثه صوب المنحدرات العاطفية حول الموضوعات التي يحبها. يكتب دانيال روش وكارلو جينزبرج عن المتعة والحماس اللذين يولدهما عملهما أو الغضب من الموضوعات التي تستعصي عليهما، مستشهدا بقلق وانزعاج ميشيل بينسون ومونيك بينسون شارلوت بصفتهما مؤلفين وما يصادفانه في أبحاثهما من عقبات مردها بالأساس إلى اليأس والإحباط والخوف من الإخفاق. إذن، يجد العالم نفسه مستثارا بالعديد من المشاعر المتناقضة (الفصل ٥). وخلال فترة التحرير، التي يسعى خلالها العالم إلى محو جميع آثاره الشخصية أي حضوره الذاتي (ص:٢٠٠)، يشهد عالم

الاجتماع هوارد بيكر على وجه الخصوص على الخوف من تشوش تأملاته وقلقه من العوائق التي تحول دون مواصلته الكتابة. ويعد النشر أيضًا مصدر توتر، لكنه يبرز مشاعر الحماس، كما نجد عند جان-بيير فيرنا بعد أن قبلت دار ماسبيرو مخطوطته، أو الإحباط كما هي الحال مع فيفر الذي يعبر عن أسفه لأنه توجه إلى دار نشر سيئة لم تحسن التعامل مع كتابه. وأخيرًا، تستحضر المؤلفة لحظة التلقي النقدي لعمل الباحث، وهي لحظة انتظار وقلق من نتائج غير مؤكدة. تتيح وجهة النظر «الخارجية» لفرانسواز فاكيه في هذا القسم صورة عن نسيج الحياة اليومية للباحث المترعة بالتوترات والعواطف المختبرة التي تحرك أو تؤثر أو تعوق البحث بصفة عامة.

أخيرًا.. ومن منظور مقارن، يتناول القسم الثالث من الكتاب والمعنون بـ«شرط العواطف»، القرنين السابع عشر والثامن عشر، مستعيدا مواضيع الفصول الخمسة الأولى -العلماء، والفضاءات، والوسائل، والحياة العملية عند الباحث، ثم عند المؤلف- تهتم فرانسواز فاكيه ببعض الوثائق الشخصية التي أنتجها المثقفون الجمهوريون في عصر الأنوار. من أجل إثبات «ما يلزم تغييره» وأن «النظام العاطفي» (مفهوم غير محدد) في العصر الحديث.

وقد اعتمدت المؤلفة في هذا السياق على عملها السابق عن إيطاليا العلمية، لتُظهر أنه يمكن أن نجد علاقات صداقة في مراسلات جان مابيلون، أو شكاوى حول المكتبة في مذكرات لودوفيكو أنطونيو موراتوري أو علامات عن الإعجاب في مديح فونتونيل. وأخيرًا، اهتمت المؤلفة بالخطابات التي ألقاها هؤلاء المثقفون الجمهوريون -خاصة مراسلات موراتوري وأحكام أسرافانس أدريان بيليت- حول العواطف وتأثيرها على الممارسة العلمية (الفصل ٧). وتذهب فرانسواز إلى أنه من خلال تاريخ الموضوعية -من العصر الحديث إلى اليوم، خاصة من خلال مؤلفات القرن التاسع عشر- بنيت الثقافة العلمية باعتبارها «ثقافة بلا عواطف» (ص:٣١٨)؛ بحيث وجب على العالم أن يتحكم في عواطفه وأن لا يجعلها تؤثر على أبحاثه، وبالتالي يُمحى كل أثر لما هو ذاتي.

وفي خاتمة الكتاب، تستحضر فرانسواز كيه ما تسميه «عودة المكبوت» (ص:٣٠٤) من هذه الثقافة المشهورة أنها بدون عواطف. وهكذا تفتح بعض المسالك للتفكير في الظروف النفسية والاجتماعية للاستحقاقات العلمية والتي عرفت الكثير من المعاناة التي تجاهلها المجتمع العلمي الأكاديمي منذ فترة طويلة (ص: ٣٢١ وص:٣٢٣). وبعيدا عن «مثال أعلى للموضوعية» الذي تتبناه «ثقافة بدون عواطف»، تمنح المؤلفة نفسها فسحة لتخيل عودة العواطف إلى العمل العلمي بفضل «الاعتراف بقيمته المعرفية» (٣٢٤) - وهذا ما سيجعل «العلم أكثر إنسانية».

ولا بد في الأخير من التأكيد على أن الكتاب لافت للاهتمام ومثير للإشكالات؛ لأنه يقف على قضايا جديدة مرتبطة بالإنتاج العلمي عبر مراحل حاسمة من تاريخ أوروبا. وبذلك؛ فهو يعيد الاعتبار للعواطف من خلال إعادة ترميم أبعاد العلم وطقوسه، من خلال التذكير بتأثير العواطف على وتيرة البحث العلمي، والالتزام بالمهمة، والتعايش والتعاون وبناء مستقبل واعد داخل المجتمعات، وبطبيعة الحال، من خلال إنتاج ونشر الأبحاث والمؤلفات. وبذلك تمكنت المؤرخة فرانسواز واكت من تفكيك أسطورة العالم/ الباحث الذي تحول إلى فكر خالص، لأن الباحثين كائنات بشرية قادرة على الانفعال، لا أحد ينكر ذلك. ومع ذلك، فإننا نضع في اعتبارنا صورة غامضة عن علم بدون مشاعر وملامح، وكأن العلماء ينتهجون بروتوكولات موحدة، وبالتالي تختفي كل المؤثرات الذاتية. سواء كان الباحث داخل المختبر أو في مكتبه الشخصي، لا يمكن أن يخفي أو يقمع أفراحه وقلقه ولا يمكن في كل حال من الأحوال أن يتحول إلى آلة لإنتاج المعرفة.

- الكتاب: «تاريخ عاطفي للمعرفة من القرن ١٧ إلى القرن ٢١».
- المؤلفة: فرانسواز فاكيه.
- الناشر: CNRS المركز الوطني للبحث العلمي، باللغة الفرنسية، ٢٠١٩.
- عدد الصفحات: ٣٤٨ صفحة.

*** كاتب مغربي**

إستراتيجية وتكتيكات جيش نابليون
أليغ سوكولوف

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

لا مراء في القول إن اسم أليغ سوكولوف عادة ما يتقدم عناوين الكتب التي يضعها، فيشد انتباه واهتمام القارئ قبل عنوان الكتاب؛ فهو أشهر من يكتب في التاريخ العسكري في روسيا، وهو مُؤسس الحركة الروسية لإحياء التاريخ العسكري، له أكثر من مئة عمل علمي حول هذا الموضوع، ولم تقتصر إصداراته على الشؤون الروسية وحدها بل شملت بلداناً مثل فرنسا وبولندا وإسبانيا والتشيك، كما تبوأت العديد من مؤلفاته مثل كتاب «جيش نابليون» وكتاب «أوسترليز» وكتاب «معركة الإمبراطوريتين» مكانة كبيرة في مجال العلوم التاريخية العسكرية وغدت من كلاسيكيات هذا الميدان؛ وقد استحق سوكولوف وسام جوقة الشرف من الجمهورية الفرنسية على بحوثه التاريخية وهي أرفع جائزة تمنحها الأكاديمية العسكرية الفرنسية.

في كتابه الجديد «استراتيجية وتكتيكات جيش نابليون» يُقدم سوكولوف إجابات وافية عن أسئلة تقنية لا تخلو من ظرافة وهي من قبيل: ما هي فعالية أسلحة القرن التاسع عشر وكيف استخدمها المشاة والفرسان وقوات المدفعية في تلك الحقبة؟ بذائقة فنية عالية يرسم المؤلف لقارئه صورة بصرية واضحة عن المعارك الكلاسيكية كما يُمثلها العصر النابليوني ويعيد صياغة المبادئ الاستراتيجية للإمبراطور الفرنسي وجنرالته. ولأنَّ الكتاب لا يدّعي استقصاء جميع المعارك التي خاضها القائد الفرنسي العظيم وعليه خصص الكاتب لعمله معركة «أولم» التي نشبت في شهر أكتوبر من عام ألف وثمانمئة وخمسة واستخدمها للكشف عن الملامح الرئيسية الكامنة في الفن القتالي النابليوني.

وفيما عدا الجانب العسكري المحض، استوعبت دراسة سوكولوف جوانب آيديولوجية وأخلاقية وجمالية توشح بها العصر النابليوني وكانت من بين المظاهر الحضارية التي استُلهمت من روح ذلك القائد التاريخي الفذ.

وإن كان العصر النابليوني هو المحور الذي يرتكز عليه البحث في هذا الكتاب، إلا أن الإطار التفكيري ينفتح على قرون ثلاثة متوالية: القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين، حيث يتتبع سوكولوف تطور أساليب الحرب لا بموجب المسار الطبيعي كتطور التكنولوجيا الحربية وصناعة الأسلحة وحسب ولكن أيضًا بموجب العملية التاريخية التي غيرت النفسانية البشرية في أوروبا.

يشير الباحث إلى أنَّ القرن الثامن عشر شهد تحسناً ملحوظاً في مستويات المعيشة لدى الأوروبيين مما أدى إلى تغيير جذري في نظرة العامّة من النَّاس إلى مسألة الخدمة العسكرية. يقول في هذا السياق: «من أجل انتزاع النَّاس من أنشطتهم اليومية وتوجيههم إلى الحرب لتدمير العدو، يحتاج المرء إلى رسم صورة للعدو مُغايرة للذات وهنا يأتي استخدام الدين والقومية كقوة دعائية نافذة لتحقيق هذه الغاية العسكرية (...) إلا أن الدولة في القرن الثامن عشر لم تعرف الجذر القومي وكانت المشاعر الدينية في حالة موات في حين أن الأنظمة الملكية لا تعدو كونها كيانات فضفاضة لا مقدرة لها على صياغة معالجات إيديولوجية لإقناع الرعايا بأنَّ ثمة سكانا في بلد آخر يجسدون شرا عظيما ويجب محاربتهم والقضاء عليهم»(ص: ١٠٥).

ويقدم الباحث مثالا نموذجيا للحروب الأوروبية في القرن الثامن عشر وهي الحرب التي وقعت بين بروسيا والنمسا وعرفت باسم «حرب البطاطا» ذلك لأنَّ كلا الجيشين المتواجهين كانا يبحثان بشكل محموم عن نقاط حاسمة لخوض القتال، ومع ذلك لم تجر بينهما معركة حاسمة واحدة، واقتصرت الحرب بأكملها على نقل القوات من مكان إلى آخر وأكل البطاطا التي كان محصولها جيدًا في ذلك الخريف في أرض بوهيميا. إذا فالملامح الرئيسية والاستراتيجية لحروب تلك الفترة كانت ترتكز على توخي الحذر الشديد في جميع الأعمال العسكرية وعلى التوجه لتجنب المعارك المباشرة والتصادم مع العدو وإلى السعي في تحقيق نتائج إيجابية عن طريق المناورات والحصار وغير ذلك من إجراءات قد تطيل أمد الصراع ولكنها تحافظ على الأرواح بأكبر قدر ممكن. وليس من قبيل الصدفة أن نجد في الكتب العسكرية التي تعود إلى ذلك القرن مثل هذه التوصيات: «لا تكشف نفسك أبدًا للعدو دون الحاجة الماسة إلى ذلك ولا تخض أية مواجهة من دون امتلاكك الثقة التامة في كسب المعركة، فمن الأفضل لك عدم الفوز بأي شيء بدلاً من أن تعرض نفسك للأضرار وتخسر ما تملكه» (ص: ٢٣٤).

ووفقاً للمؤلف فإن الثورة الفرنسية العظمى قوضت جميع المبادئ الحربية التي كانت تبدو ثابتة من قبل. فمنذ ذلك الحين وصاعداً لم يعد الأمر متعلقا بنضال الفرنسيين ضد النمساويين من أجل الإرث البولندي أو لحيازة حصن من الحصون ولكن بوجود الدولة القوية نفسها وتثبيت أركانها على الشكل الذي أرسته الثورة. يقول المؤلف في هذا السياق: «لقد قلب نابليون بونابرت صفحة في التاريخ ووضع حدا للحروب الصغيرة وذلك بتنصيب نفسه قائدا عظيما يجر خلفه جيشاً لا يقهر. وهو القائد الذي أدرك قبل غيره أن السيف لا يخرج من غمده إلا للقتل والقضاء على العدو وأن سياسة الحصار وتجويع العدو إنما هي سياسة سلبية ومحفوفة بالمخاطر. وفي هذا السياق فإنَّ عظمة نابليون كقائد كانت نتيجة لفهمه طبيعة الحرب واستخدامه استراتيجية القضاء المُبرم على الخصم وإلحاق الهزيمة النكراء بالجيوش المنافسة وتحقيق نصر كامل غير منقوص» (ص: ٢٣٧) ومن مبادئ الاستراتيجية الحربية التي اعتمدها نابليون يخلص المؤلف لنقاط نذكر منها: ١)الحاجة إلى استنفاد القوة الذاتية إلى أقصى حد وإثباتها في أرض المعركة ٢) توجيه ضربات سريعة للعدو ٣(محاولة تقسيم جيش العدو إلى أجزاء وتدمير تلك الأجزاء الواحد تلو الآخر ٤) السعي الحثيث لتدمير القوى الحية للعدو تدميرا شاملا ٥) عدم الانخراط في محاصرة العدو في حصونه واصطناع المناورات ٦) شل روح

المقاومة للعدو بصرف النظر عن إرهاق الجيش وخسائره البشرية ٧) لا وجود للانسحاب أو تجنب المعارك، فالجيش يتقدم ولا يتقهقر ويرتمي في أرض الوغى بكل دموية وينتزع النصر بجسده.

لا ينكر سوكولوف أن أساليب الحرب الجديدة لم تنشأ بأمر حاسم أو بتخطيط عملي مسبق وإنما ظهرت بموجب عوامل مختلفة تضافرت ضمن ظروف محددة، ولكن، ومما لا شك فيه أيضًا أن هذه التكتيكات والسياسات الحربية الجديدة وجدت تجسيدها الأبرز والأكثر حيوية في شخص نابليون. لذلك فلا غنى للباحث في التاريخ الحربي للقرن التاسع عشر من الرجوع إلى سيرة نابليون الحربية، تلك السيرة التي طالما أوقعت الرعب في صفوف الجيوش المعادية للإمبراطورية الفرنسية وأذاعت اسم نابليون في أطراف المعمورة.

يصف المؤلف زمن نابليون بآخر العصور الحربية الكلاسيكية العظمى، وهوالعصر الذي كان على مرمى حجر من بزوغ زمن جديد تعرفت فيه البشرية على أنواع أخرى من الأسلحة كالمدافع الرشاشة والمدفعية بعيدة المدى والقنابل عالية التفجير وغيرها من الأسلحة التي دشنت لعهد جديد من الحروب وأسست لمفاهيم قتالية تختلف عن كل ما سبق للبشرية معرفته منذ فجر التاريخ.

ومن الأجزاء الظريفة في كتاب سوكولوف وصفه الجانب الظاهري للجنود المشاة في الجيوش الكلاسيكية، كالبيارق المرفرفة التي يحملها الجند والموسيقى العسكرية المتعالية والزي العسكري الجميل والمطرز بأسلوب أنيق وعملي في الوقت نفسه، وكان هذا الجانب، وإن بدا ظاهرياً إلا أنه ساهم مساهمة فعالة في رفع الحالة المعنوية للجيوش وحافظ على تنظيم الألوية ورص صفوفها.

ومن الجوانب الهامة التي أشار إليها المؤلف تأكيده على العنصر النفسي في نجاح الجيش النابليوني. يقول في هذا السياق: «لم تأت الطفرة في الجيش النابليوني باختراع البندقية عام ١٧٧٧ ولا باستحداث نظام مدفع «جريبوفال» ولكن جاءت تضافرا مع الاضطرابات السياسية والاجتماعية والأخلاقية الكبيرة التي شهدتها فرنسا وأسفرت عن الثورة الفرنسية الكبرى. لقد استفزت شرارة الثورة طاقات بشرية هائلة كانت في حالة سبات عميق، فخرجت التعصبات القومية والآيديولوجية

واتقد الحماس الثوري في أفئدة الناس وشب في قلوب الشباب هوس بالنصر (...) إن قوة الاندفاع التي ضخها الشباب في الجيش النابليوني واستعدادهم المطلق للانضواء تحت رايته، ذلك الاندفاع الذي نادراً ما عرف التاريخ له مثيلا، إنما يعود إلى أسباب كثيرة ذات طابع أخلاقي واجتماعي ونفسي. ومن ناحية أخرى فإنَّ النظرة إلى المهنة العسكرية باعتبارها أقصر الطرق للوصول إلى قمة التسلسل الهرمي الاجتماعي، وبأنها وسيلة للتأكيد الذاتي، السياسي والمدني، ناهيك عن البريق الذي يحتويه الزي العسكري وسحر المغامرة كل ذلك ساهم في جذب الشباب للانخراط في جيش نابليون الذي قام بعدها بحملة النصر عبر أوروبا كلها وسحق العروش وحطم أوثان أوروبا القديمة وأزال الغبار عن قارة جديدة وفتية (...) إنه الإيمان لدى الجنود وقتالهم من أجل العدالة وهزيمة الطبقة الاقطاعية الظالمة وذلك تحت راية إمبراطور محارب، مغوار وعادل، استطاع أن يجعل من نفسه مفخرة لجنوده وضباطه وأن يقودهم للمشاركة في أعمال عظيمة شكلت حقبة كاملة في التاريخ البشري» (ص: ١١١).

ومما لا يقل أهمية في الكتاب تلك الفصول التي تحدث فيها المؤلف بالكثير من التفصيل عن قرارات نابليون الخاطئة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية والمناورات العسكرية الخطيرة، ضارباً المثل في ذلك بحملته غير المدروسة على إسبانيا واستهانته بالروح المقاومة للشعب الإسباني، وأيضاً الحملة التي قام بها ضد روسيا وهي الخطوة التي قادت إمبراطورية نابليون برمتها إلى الهلاك. فمن بين الأخطاء العسكرية والسياسية القاتلة لنابليون والتي يجمع عليها المؤرخون باختلاف مشاربهم ومرجعياتهم، تلك الحملة التي نظمها للاستيلاء على موسكو. فاستنادًا إلى الوثائق التاريخية والاستراتيجية في حروب نابليون، نجد أن الإمبراطور الفرنسي لم يكن ينوي حربًا شاملة على روسيا، إلا أنه كان مضطرا للدخول في مواجهة معها، وكان في ظنه أن تلك المواجهة، وإن تطورت كثيرا، إلا أنها لن تكون أكثر من حرب حدودية وحسب. ولكن المفاجأة جاءت من القوات الروسية التي لم تكتف بالوقوف أمام الهجوم النابليوني بل اتخذت خطوات هجومية عنيفة ابتغاء سحق العدو الغازي، علماً بأن قوات نابليون كانت أكثر عددا وعتادا من القوة الروسية، وقد كانت الصورة الأولية لنابليون أن النصر سيكون حليفه بنسبة لا تقل عن تسعين بالمئة. بيد أن السيناريو اتخذ مسارا مختلفا على أرض الواقع وفي ساحة القتال، فبدل أن يندفع الروس إلى الجيش الفرنسي الذي كان ينتظر تقدمهم، اتخذوا استراتيجية أولية للانسحاب المرحلي المدروس، والتلاعب بالجيش الفرنسي، وخلق واقع سرابي أمامه يستدرجونه إليه وذلك حتى تحين ساعة الصفر وانطلاق الهجمة التي كسرت الجيش النابليوني على النحو الذي يذكره التاريخ.

ختاماً يجدر بالذكر أن كتاب أليغ سوكولوف «استراتيجية وتكتيكات جيش نابليون» ضم عددا وافرا من الرسومات التي تشهد على الأحداث التاريخية قيد دراسته، الأمر الذي منح الكتاب رونقا فنيا وعزز من مقروئيته إلى جانب تتبعه للملحمة النابوليونية من مختلف جوانبها وبجميع الأشكال المتاحة.

الكتاب: استراتيجية وتكتيكات جيش نابليون.
المؤلف: أليغ سوكولوف.
الناشر: جامعة سينيرغيا/ موسكو ١٨٢٠.
اللغة: الروسية.
عدد الصفحات: ٤٠٠ صفحة.

***أكاديمية ومستعربة روسية**

الأسياد وإدارتهم
كيتلين روزنتال

محمد السالمي *

يُمثل هذا الكتاب مُساهمة فريدة في الجهود المُستمرة منذ عقود لفهم علاقة العبودية المُعقدة للعالم الجديد بالرأسمالية. كانت العبودية في الولايات المُتحدة عملاً تجارياً مربحاً للغاية وغير أخلاقي. تركز أغلب الأبحاث حول تاريخ الرق على أهوال تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي والمصالح التجارية التي غذتها. والسرد الشائع هو أنَّ تقنيات الإدارة الحديثة التي وصلنا إليها اليوم تمَّ تطويرها في المصانع في إنجلترا والولايات المتحدة. وفقًا لهذا الكتاب للمؤرخة كيتلين روزنتال، فإنَّ هذه الرواية خاطئة، حيث تجادل الكاتبة بأنَّ أصحاب الرقيق في أمريكا الجنوبية ومنطقة البحر الكاريبي كانوا يستخدمون تقنيات الإدارة والمُحاسبة المتقدمة قبل نظرائهم الشماليين بوقت طويل، وهي التقنيات التي لا تزال تستخدمها الشركات اليوم. وعلى عكس السرد الذي يصور العبودية كحاجز مانع للابتكار، يوضح كتاب «بيان عن الرق» كيف حوَّل النخبة سلطتهم على الأشخاص المستعبدين إلى ميزة إنتاجية.

كانت وحشية العبودية متوافقة بسهولة مع تطوير تقنيات جديدة لتنظيم القوى العاملة. كيتلين روزنتال هي أستاذة مساعدة في التاريخ بجامعة كاليفورنيا بيركلي. وقد عملت سابقاً كمستشارة إدارية مع شركة ماكينزي. كما فازت سابقاً بجائزة كروس لأفضل أطروحة في تاريخ الأعمال بجامعة هارفارد.

أقدمت الكاتبة على الاطلاع على السجلات التجارية من مصانع النسيج في بريطانيا، وكذلك سجلات المزارع في أمريكا الجنوبية والكاريبي، حيث لاحظت أنَّ السجلات الجنوبية أكثر تطوراً بشكل ملحوظ من الممارسات المعتادة في مصانع النسيج. وفقًا لروزنتال، فقد تفوقت أساليب محاسبة المزارع الجنوبية على الأساليب الخاصة بالشركات المصنعة الشمالية. سمحت سيطرة الأسياد على العبيد بفرض الحصص بقوة عبر طرق محاسبية بسيطة. ويمكن القول فقد تفوق أصحاب العبيد على «ضوابط الإدارة» التي ستصبح عاملاً أساسياً في نظريات الإدارة وسياساتها فيما يتعلق بوظائف التصنيع اللاحقة.

في العادة يهتم العديد من المؤرخين باستخدام دفاتر الحسابات للكشف عن تجارب الأشخاص المستعبدين؛ بينما تحلل الكاتبة من منظور أصحاب العمال، حيث إن المزارعين كانوا يتخذون قرارات تجارية معقدة حقًا، وبالطبع فإنَّ جسم الإنسان الأكثر فزعًا من حيث إنه يصنف كسلع كما تشير الكاتبة. هناك الكثير من الممارسات الإدارية التي يستخدمها المزارعون والتي لا تزال إلى اليوم. أولاً، لقد بنوا تسلسلات هرمية معقدة من حيث إن بناء الهيكل الإداري لمزرعة جامايكية، يبدو مشابهًا لشركة أمريكية متعددة الأقسام. حتى فكرة إرسال الأشخاص إلى أماكن مختلفة لتدريبهم على التقنيات الإدارية يمكن إرجاعها إلى المزارع. في بعض الحالات يقدم أصحاب المزارع في إنجلترا على إرسال أبنائهم إلى جزر الهند الغربية لتعلم كيفية إدارة المزرعة.

وتشير كايتلن إلى تعقيد منظمات الإدارة التي كان على المزارع الاعتماد عليها. كانت هذه الشركات ضخمة، وكانت كبيرة جدا حيث تحوي الآلاف من الناس المستعبدين. ولإدارة مؤسسة بهذا الحجم، فأنت لا تحتاج فقط إلى مالك ومشرف، ولكنك بحاجة إلى عدد من المديرين المتوسطين. حيث إن المشرفين على المزارع كانوا من نواح كثيرة يمكن أن يصنفوا على أنهم أول مديرين مستأجرين في البلاد. والمزارع لا تحوي فقط المشرفين، بل يكون تحت إشرافهم مديرون من البيض يُطلق عليهم أحيانًا اسم «ماسك الدفاتر» ، وأسفلهم مديرون مستعبدون مثل السائقين الرئيسيين، وحارس الرؤساء، والنجارين، كل واحد منهم مسؤول عن إدارة الجوانب المختلفة لإنتاج المزارع. شيء آخر مثير للاهتمام حقًا هو الطريقة التي اتبعها المزارعون في حساب التكاليف. لذا فإنَّ أحد التطورات الرئيسية في ظهور الأعمال الحديثة هو فكرة أنه يجب عليك تحليل منتجاتك لمعرفة بالضبط تكلفة كل شيء. ويتعلق الأمر بذلك بتحليل الاستهلاك، لذلك التفكير في الكيفية التي قد تتغير بها التكلفة الثابتة مع مرور الوقت مثل قطار السكك الحديدية، وكيف يجب أن نأخذه في الاعتبار.

من المذهل أنه عندما ترغب الشركات اليوم في التغيير للأفضل يكون بسبب نوع ما من الأسباب الأخلاقية أو الاجتماعية، وأننا نجعل الحجج الأخلاقية على أساس أنه يقودنا إلى ما هو أكثر كفاءة أو ما من شأنه تعظيم الأرباح.

ليس هذا الحال دائمًا كما ترى الكاتبة، ولكن غالبًا ما يكون الهدف هو الربح في الأعمال التجارية، وتشير إلى أن المسؤولية الاجتماعية للأعمال التجارية تتمثل في زيادة الأرباح. وهناك افتراض أساسي أنه إذا قمنا بزيادة أرباحنا ببساطة، فستحدث بعض الأشياء الجيدة على طول الطريق مثل توسع نطاق الحريات والحقوق، وأن الكعكة ستصبح أكبر وأن الفوائد ستتوسع لتحتضن الجميع. لا ننسى أن العبودية جعلت الكثير من الناس أغنياء بشكل لا يصدق. وهذا النوع من القصة يوضح كيف يمكن لهذا النوع من النجاح أن يترافق مع الانتهاكات الفظيعة للملايين الناس.

كما تتطرق الكاتبة لاستبعاد العبودية من تاريخ العمل حيث تشير إلى أنَّ هناك عددا من الأسباب المختلفة؛ فبعد الحرب الأهلية الأمريكية، كانت كل الاهتمامات تتمثل في إلغاء العقاب ومصالح المزارعين الجنوبيين من حيث الإشارة إلى أن العبودية كانت متخلفة وغير مربحة، ومن ناحية أخرى لجعل أصحاب العبودية يشعرون بتحسن فيما كانوا يفعلونه. ولكن منذ ذلك الحين كانت هناك لحظات كثيرة حاول فيها مؤرخو الأعمال والعلماء الآخرون تذكيرنا بأهمية العبودية في تاريخ الإدارة. لدرجة أنه تم نشر مقال ليس ببعيد يسلط الضوء على أهمية العبودية في تاريخ الممارسات التجارية الأمريكية، لأنه إذا قرأنا مصادر ثانوية عن الأعمال الأمريكية والعبودية الأمريكية، يمكننا أن نرى على الفور أن المزارعين يقومون ببعض الأشياء ذاتها التي يفعلها رجال الأعمال في الوقت الحالي.

تشير كيتلين إلى أحد أهم التفسيرات الأخيرة للحرب الأهلية الأمريكية وهو أن الناس المستعبدين قاتلوا من أجل حريتهم، وكانوا حاسمين للغاية في تفكيك النظام، وأن فهم هذه الأنظمة يمكن أن يساعدنا على فهم كيف حدث ذلك. أولاً وقبل كل شيء، قام الناس بالتمرد والمقاومة بعدة طرق، لكن المعلوم أنهم لم

يتمكنوا من تقويض النظام لفترة طويلة. وإذا ألقينا نظرة على هذه السجلات، يمكننا أن نرى أنه بينما كانت عبودية المزارع تتوسع في جميع أنحاء الجنوب، فقد كان التحديث يتوسع أيضًا، حيث إن النظام أصبح يخضع للمراقبة ولديه بيانات. لقد أصبح نظامًا صعبًا للغاية لم يتمكن المستعبدون من الخروج منه. في المقابل، كان له دور كبير في التآكل على المدى البعيد.

أحد فصول الكتاب بعنوان «رأس المال البشري» وهو يتعلق بالطرق المختلفة التي يقدر بها أصحاب الرقيق وتجار الرقيق قيمة الأشخاص المستعبدين. من الأفكار التي تطرحها الكاتبة في اعتياد الناس على التفكير في أن النظام مع العبودية يعتبر نظامًا لم يكن فيه سوق حرة، وبالطبع لم يكن هناك سوق حرة من منظور الأشخاص المستعبدين. ولكن من وجهة نظر مالكي العبيد، كانت هذه ممتلكاتهم وشهدوها كحرية اقتصادية لامتلاك تلك الممتلكات، وتداول تلك الممتلكات، والتعامل مع تلك الممتلكات كما يرغبون. بمعنى أنه من المثير للاهتمام إذا نظرنا إلى نصف الكرة الأرضية على نطاق أوسع من تحرير الولايات المتحدة، فإنه في معظم حالات تحرير العبيد، يتخلى الأشخاص عن عبيدهم في الواقع لأنهم تعرضوا لخسارة في الممتلكات.

إحدى قصص الكتاب، وتحديدا في أربعينيات القرن التاسع عشر، قام مالك مزرعة بعمل كتيب ودليل لتسجيل ومراقبة إنتاج العبيد. في الكتيب يقدم تعليمات خاصة حول كيفية تقييم قيمة المستعبدين؛ كلما تنمو أو تصبح أقوى، فإنها تزيد في القيمة. ولكن على الجانب الخلفي أيضًا، يتابع المزارعون انخفاض قيمتهم مع تقدمهم في العمر، أو إذا تعرضوا للإصابة وهذه التقييمات المعقدة نسبيًا تمتد حتى للأشخاص الذين يتلقون قيمة سلبية في بعض الأحيان. وهناك العديد من الوثائق المثيرة للقلق التي تظهر أن المزارعين قاموا بتصنيف الأشخاص المستعبدين على أنهم جزء من اليد. تم تسمية رجل يبلغ من العمر ٢٠ عامًا وهو يتمتع بصحة جيدة لأنه هدف رئيسي للإنتاج. لكن الطفل الذي يتعلم العمل، أو الأم التي ترضع قد يتم وصفهما بأنهما نصف يد، أو ثلاثة أرباع اليد الكاملة.

تسرد الكاتبة أن المزارعين استخدموا الميزانية العمومية لإدارة العمليات وحساب الربح والخسارة، حيث استخدمها المصرفيون للموافقة على القروض. وكما تشير التقارير، كان ٤٠ ٪ من القروض العقارية مضمونة من قبل الأشخاص المستعبدين. تحكي الكاتبة قصة كيف طور مزارعو السكر في الكاريبي هذه الأنظمة لإدارة أول العمليات التجارية واسعة النطاق. نظرًا لأن معظم مزارعي السكر كانوا مالكين غائبين، وغالبًا ما يعيشون في إنجلترا، فقد وضعوا مزارعهم التي في الخارج للإشراف. على الرغم من أنه لا يتعين عليهم معرفة أو رؤية الأشخاص الذين تم استعبادهم، فقد كانوا مدركين تمامًا من الملخصات المحاسبية للخسائر البشرية على عمالهم؛ فقد أخبرتهم السجلات بعدد العبيد الذين ماتوا أو مرضوا أو هربوا. فحتى نهاية القرن العشرين بدأت الشركات في الاستعانة بمصادر خارجية لتوظيف العمالة للمصانع الأجنبية، وهو ابتكار أنقذها من الاضطرار إلى رؤية هذه التفاصيل المزعجة. ففي وقتنا الحاضر، إن تفاصيل الإنتاج والرواتب للمصانع خارج الحدود معلومة لدى صنّاع القرار في الشركات، دون الاهتمام بالتفاصيل المزعجة والتي قد تتضمن بيئة العمل وآثارها على المجتمع وغيرها.

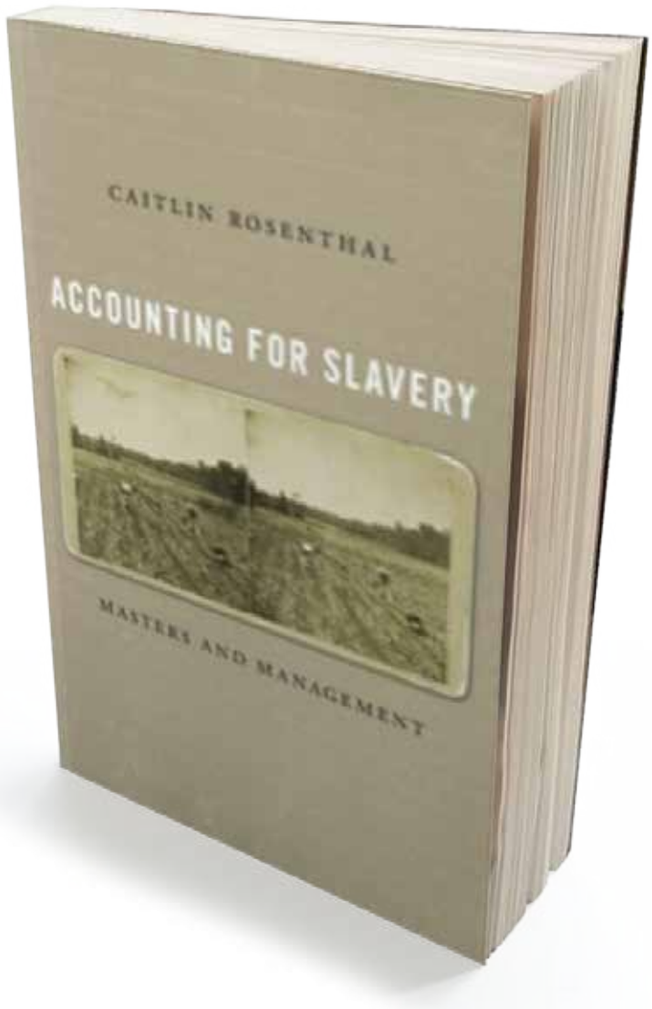

تضمن الكتاب الكثير من الأمثلة التي أظهرت أن أصحاب العبودية يستخدمون العديد من نفس الممارسات التي تعتبر عادةً علامات بارزة في ظهور الأعمال الحديثة. ولا ريب أنَّ الكتاب يقدم قصة اقتصادية مهمة بشكل خاص لأنها يمكن أن تساعدنا على إدراك مدى ضخامة تجربة العبد، وما هو الشيء المهم الذي يجب أن نتصدى له. إذا كنا نفكر من أين جاء اقتصادنا، فهذا يمثل جزءا كبيرا من الاقتصاد الأمريكي خلال تلك الفترة. وأيضاً، فإنَّ التعمق في تاريخ العبودية في المحيط الأطلسي عبر هذا الكتاب، سيفتح أذهان قرائه، ويقنعهم بالنظر بعيون جديدة إلى الحريات المنتزعة.

اسم الكتاب: بيان عن الرق: الأسياد وإدارتهم .
المؤلف: كيتلين روزنتال.
الناشر:Harvard University press
سنة النشر: ٢٠١٨.
اللغة: الإنجليزية.
عدد الصفحات: ٣١٢ صفحة.

*** كاتب عُماني**

"أنا حَنّبعل.. يوميات قائد" جوفانّي بريزّي

عزالدين عناية *

لم تقرّ روما لخصم لها بالإجلال والرهبة مثلما أقرّت بذلك لحنّبعل القرطاجي (٢٤٨-١٨٢ ق.م)، ليس لفطنة الرجل السياسية وعبقريته العسكرية فحسب، وإنما لخطورة طرحه الجيوسياسي حينها، كبديل حضاري متكامل يعيد رسم خريطة العلاقات بين الحضارات المطلّة على المتوسّط، بعيدا عن الصراعات التي استحكمت بتلك البحيرة حتى حوّلتها إلى مقبرة مترامية الأطراف. وهنا يتنزّل ما عُرف بقَسَم حنّبعل: «أقسم أن أناصِبَ روما العداء إلى الأبد»، في إيحاء واضح إلى رفض نمطها الحضاري المتعسّف والتطلّع إلى نمط ديمقراطي، كما كانت تبشّر به قرطاج ودستورها. من هذا الجانب لا يزال القائد العسكري القرطاجي حنّبعل بن أميلكار محلّ دراسة واهتمام من قِبل المعنيين بالمجالين السياسي والعسكري.

فالرجل من القادة الموهوبين الذين تجلّى عبرهم الذكاء البشري في أبهى لُمعه، في استنباط الحلول وتذليل الصعاب، حتى عُرف بمقولته الشهيرة: «سوف نجد حلا أو سنصنع حلا». فلم تذعن روما إلى خصم من خصومها مثلما أذعنت لـ«حنّ-بعل» أو «حنان بعل»، حنان الإله ورأفته، كما يدلّ اسمه المركّب في البونية القديمة شقيقة العربية. وللإلمام بفرادة الرجل يقتضي البحثُ التاريخي الإحاطة بالحيثيات والأوضاع التي صنعت شخصه. فليس حنّبعل شخصية قيادية أسطورية، على غرار الإسكندر المقدوني أو قورش العظيم، بل هو شخصية سياسية واقعية، تميّزت بموهبة التكتيك المبهر، مع ذلك لم يسلم من تشويه الخصوم ونعته أحيانا بالفظّ المتعطّش لسفك الدماء والمدبّر البارع للإيقاع بالخصم. لكنّ حنّبعل الذي روت ملحمته الرواية الرومانية غير حنّبعل التاريخي الإنساني، الذي حاول إعادة رسم ملامحه المؤرّخ والمتخصّص الإيطالي في سيرته جوفانّي بريزّي في كتابه: «أنا حَنّبعل.. يوميات قائد»، من خلال إعادة لملمة شظايا السيرة الذاتية المبعثرة لهذا الرجل. في كتابه الذي نتولى عرضه يقسّم بريزّي بحثَه إلى سبعة عشر معنوَنا، غطّت كافة المحطات التاريخية الحاسمة في حياة حنّبعل. بنى وفقها الباحث يوميات الرجل معتمدا في ذلك مرجعية تاريخية مهمّة انشغلت بإمبراطورية قرطاج.

يبدو حنّبعل في هذه السيرة على ثقافة عالية، فنّية وأدبية ودينية، إلى جانب فطنة لافتة وقدرة عسكرية فائقة. فقلّ أن اجتمع عنصرا العبقرية القيادية والثقافة المتينة لدى رجل عسكري، أكان في القديم أم الحديث. لعلّ حنّبعل كان واثقا من نفسه حين قال في وصيّته: «أودّ أن أخلّف درْسا إلى الأبد» لفرادة مساره الجامع بين بَأْس القوة وعمق الثقافة. بعزيمة لا تكلّ خاض حروبه، يروي عن نفسه قائلا: عرفت سُكر الصراع وزهو النصر وما طلبتُ من الآلهة أن تباعد بيني وبين البلايا، ولكن أن تقيني شرّ اليأس.

ليس بالأمر الجديد على أهالي «قرت حدشت» أو «القرية الحديثة»، التي باتت تُعرَف بقرطاج، أن يتوزّعوا في أصقاع العالم، أكان في القديم أم في الحديث، مع حفاظهم على رباط قوي بمهوى الأنفس، قرطاجة، التي باتت «تؤنس»، أو «تونس» كما هو دارج في القول. فالقديس أوغسطين وليدُ ثاغست (سوق أهراس) حين ألقى به القدر في ميلانو بيّاعا للكلمات كما يقول عن نفسه، حين كان يدرّس الخطابة، لم يطق صبرًا وأقفل راجعا إلى إفريقية، يقول في «الاعترافات» مخاطبا ربه: «كنّا نبحث عن مكان نقدر فيه أن نكون أكثر خدمة لك، فعدنا إلى إفريقية». وحنّبعل رغم أنّه قضّى معظم مشوار حياته خارج قرطاجة، أكان في إسبانيا أو إيطاليا أو بلاد الشام أو في المنفى الأرميني، فقد كان مسكونا بسحر العودة إلى قرطاجة. يقول في يومياته: رغم بعد السنوات لم أقدر على التخلّص من الحنين إلى مسقط رأسي.

ثمة فكرة جوهرية تطغى على مؤلّف جوفانّي بريزّي تتمثّل في رصد العناصر الجوهرية التي شكّلت شخصية القائد القرطاجي. ومن بين تلك العناصر الحاسمة والقوية الرّباط المتين بين الوالد وولده، بين أميلكار الأب وحنبعل الابن، وإن لم تسعف طبيعة الحياة السياسية الوالد بالحضور الدائم جنب الابن. لكنّ التربية النفسية والتعليمية التي وضَعَ لبناتها الأب ساهمت مساهمةً فعّالةً في صَقْل شخصية الابن كما يشتهي الوالد، وهي التعويل على تهذيبه معرفيا في سنّ مبكرة. كانت الثقافتان البونية واليونانية حاضرتيْن بعمق في تعليم الصبي فضلا عن اتقان اللغات، وقد كان تعلّم جملة من اللغات من سمات القرطاجي الجائل في المتوسط وضفافه. كان حنّبعل يتقن الإغريقية واللاتينية، فضلا عن لغتين إيبريتين ولهجات سلتية، ناهيك عن البونية والنوميدية، بما كان يغنيه عن وساطة المترجمين عند تعامله مع جنده؛ لكن في صميم ذلك التعليم حضر الجانب الديني جوهريا كما يبيّن جوفانّي بريزّي. وقد كان ذلك التكوين الديني لحنّبعل ممزوجا بمسحة عقلانية متقدّمة، سمحت له ببناء رؤية متّزنة في التعاطي مع الشأن الغيبي. إذ كانت فلسفة الدين في المنظور القرطاجي، رغم طابعها الوثني، متمحورة في إيمان بقوة متعالية مهيمنة على سائر الكون، تنزع قربا نحو الواحدية الخالصة والتجريد. كان الإلمام العميق لحنّبعل بالثقافات المتوسّطية قد جعله على دراية مهمّة بأساطير الإغريق والتصوف والفلسفة. فقد كانت طبيعة الدولة القرطاجية الممتدّة على ضفاف المتوسط تملي على مواطنها أن يكون متوسّطي الثقافة. وعبقرية قرطاج في صهر ثقافات المتوسط داخل الحاضنة الفينيقية السامية التي نبعت منها. ورغم التكوين اللاهوتي العميق لحنّبعل، كان الرجل ميّالا بطبعه إلى البعد العملي، مرتئيا أن بهاء الدين في حضوره المعيشي في الأفعال بالأساس.

وبموجب هذه الخلفية الرؤيوية كانت العقيدة العسكرية لحنّبعل مشبَعة بالحسّ الديني البوني، وهو العنصر الرئيس الذي تقاسمه قادة قرطاج، أميلكار وحنّبعل وشقيقه صدربعل. كان ثقل الرسالة الدينية العسكرية قويًا لدى حنّبعل، فقد كان يتمثّل ذلك في علاقة وثيقة بالألوهية تجلّت في تردّده الدائم على المعابد. والجلي كما يُبرز مؤلّف الكتاب أنّ الحسَّ الديني العميق لدى القادة العسكريين كان من سمات الجيوش السلتية والإيبيرية أيضا، فقد كان الملوك والقادة يشْبِهون الشامانيين المستودَعين على الأسرار الإلهية، وليس غريبا أن كان

ملوك مملكة صور مفوَّضين من قبل الآلهة.

لقد مثّل مسعى خلق متوسّط سامي، يدين بالولاء لقرطاجة، هدفا أعلى لحنّبعل؛ لكنّ روما التي زرعت أعوانها في شتى أنحاء المتوسّط شكّلت عائقا فعليا لطموحات الرجل، مع ذلك لم ينثن واختار مهاجمة الخصم في مجاله الحيوي الضيق في شبه الجزيرة الإيطالية، مباغتا إياه عبر حصنه الشمالي من جبال الآلب.

ورغم عدم توازن القوى بين قرطاج وروما (بلغ تعداد جيش حنّبعل حينها ٤٥ ألفا في مقابل جيش روما البالغ ٧٧٠ ألف مقاتل) فقد عوّل القائد القرطاجي على النوعية والاستثمار في الذكاء والمكر، أكثر منه على العناصر التقليدية في الحروب عصرئذ. فكان يملي على جنده التدرب على السلاح والرياضات المتنوعة جنب التحصيل الثقافي العسكري، بالاطلاع على مؤلّفات فنون الحرب والتكتيك والاستراتيجيا، وعلى التمعّن في السِّيَر العسكرية للقادة العظام مثل الإسكندر العظيم، وفيليب الثاني المقدوني، وأنتيغونوس الأول، ومونوفثالموس المقدوني، وديميتريوس بوليوركيتيس المقدوني. وبرغم ذلك الخُلق العسكري، ثمة اتهام لاحق الرجل بشأن التخلّص من العناصر غير الوطنية في جيشه، أي غير القرطاجية، حين أمْلت الضرورة ذلك، ودفعهم في معارك خاسرة لا أمل للفوز فيها، أي بما يشبه المجزرة المبيَّتة. لكن اليوميات تبرّئ الرجل وتبرز أنه كان مترفّعا عن الانحدار الخُلقي الذي يأباه تكوينه العسكري. لكنّ عقيدته العسكرية الصارمة كانت تملي عليه اتخاذ مسافة من غير الأكفّاء من جنده، ولا سيما ممن لا يؤمَن لهم جانب، خصوصا في زمن كانت فيه الجيوش قائمة على عناصر المرتَزِقة بالأساس. اثنان وعشرون شهرا قضاها حنّبعل في إيطاليا لم يخسر فيها معركة، وضع فيها روما على حافة الهاوية بشكل لم تعهده في تاريخها من قبل.

يقول حنّبعل: كاستراتيجي حاولت دائما أن أقرأ ما وراء الوقائع، وأن أكون سريع القرارات ومباغتا للخصم، وفي عملي ضدّ روما الذي أخذ حيزا مهمّا من مناوراتي، بعد القَسَم المقدّس، لم أتوان في استشارة أبناء البلد ممّن لا يكنّون لي ضغينة. فقد نسجت علاقات في أرض الخصم امتدّت على كافة التراب الإيطالي، حتى داخل حيز روما ذاتها. وفضلا عن الخطط الدقيقة التي رسمتُها لاجتياز جبال الآلب، أبرمتُ بعض التحالفات مع بعض القبائل في طريقي. واستعنتُ بشبكة واسعة من العيون والمخبِرين،

يعود إليهم الفضل في إلحاق عديد الضربات الموجعة بالخصم، مثل عملية كلاستيدوم أو فرار رهائن تارانتو. بعبارة مختصرة اتّبعتُ كلّ سبيل في تجميع الأخبار التي رأيتها لازمة لمخطّطي. كما أرسلتُ إلى ميدان الخصم فارّين من الجنديّة غير حقيقيين بقصد الإيقاع بالعدو، ولم أتوان أثناء حروبي في توظيف الإنسان والحيوان لبلوغ ما أصبو إليه، من الفيَلة إلى الأفاعي، بإلقاء براميل الثعابين السّامة في سفن العدو، كما الشأن مع يومينس برغامو. وحاولتُ ضمن استراتيجياتي بثّ الأخبار الزائفة في صفوف الخصم، وزرع بذور الفتنة في قواته وبين سياسييه، حتى استطعتُ السيطرة سياسيا على عدة جهات تابعة لروما، مثل كابوا وسيراكوزه وتارانتو. بخلاصة حاولتُ توظيف أي وسيلة من وسائل الحرب السرية والعلنية، لكن في زحمة هذا الصراع كنت دائما أقدّر شجاعة الخصوم وفطنتهم، الأحياء منهم والأموات. ولو بُحت بسرّ عبقريتي القيادية لقلتُ اعتماد الفطنة بالأساس، تلك الخصلة التي ضمنت لي قدرة التحكم السريع في الأوضاع المباغتة وإيجاد الحلول العاجلة خارج التعاطي التقليدي مع الطوارئ. ولمن يريدُ اقتفاء أثري وتقليدي أترك وصيةً وحيدةً وهي التعويل على التفكير بحرية مطلقة.

في آخر الكتاب يحاول جوفانّي بريزّي الإتيان على ملامح مشروع حنّبعل الجيوسياسي المناقض لمشروع روما قائلا: أنشأ القرطاجيون نظام المدن (poleis)، وهو ما يعني تجمّعات للمواطنين، أو كيانات دُول متكوّنة من مواطنين تنتظم حياتهم وفق دساتير؛ فيها السلطة السيادية محميّة ومراقَبة بمجالس، ويتكوّن أعضاؤها من صفوة القوم ومن رؤساء العائلات المتنفّذة. يُخوَّل لتلك المدن بدورها إنشاء المستعمَرات المستقلّة الشبيهة بالوطن الأم. إذ يتعلّق الأمر بشيء يغاير جوهر النُّظم الشرقية في الدول القديمة التي تتمحور حولَها كلّ الأمة؛ إنّه شيء مختلف عن الفضاء الهائل التابع للأُسر الحاكمة الآشورية، سواء في دجلة أو في بابل، ذلك الذي تشكّل بقصد تجميع كافة الثروات وليكون مقرّا لسائر الآلهة؛ وهو مختلفٌ كذلك عن المقرّات الثلاثة المتحولة للأخمينيّين، ومختلفٌ أيضا عن الأسواق التجارية الشرقية الكبرى والمدينة-المعبد عند المصريين. كانت المدن القرطاجية البحرية مراكزَ مدنيّة نشيطة، وهي بالتأكيد حصينة، وتخلو من طبقة المحاربين، بل فيها طوائف من أصناف شتى؛ وكانت تَعرف دائما كيف تدافع عن نفسها.

في هذا النموذج السياسي يزعم القرطاجيون شرفَ الدفاع عن الحرية أمام الطغيان الروماني، معتبرين روما ولواحقها محتَشدات ضخمة، يمكن أن تضمّ قصورا فسيحة، وأسواقا مكتظة، ومعابد رحبة، ومسارح هائلة، فهي يمكن أن تكون كلّ شيء إلاّ أن تكون مدنا. فهناك قِيمٌ تفتقر إليها التجمعات الرومانية وفق منظور قرطاج. لقد أدرَجَ أرسطو، أثناء تعرّضه إلى مختلف أنواع الدساتير في المدن الإغريقية، في «كتاب السياسة» (ج٢/ ١١)، حالة قرطاج، المدينة الفينيقية-البونية الكبرى، وذلك ضمن النموذج السياسي المركّب، بخلاف حالتي إسبرطة وكريت، ناعتًا نظام قرطاج السياسي بالدستوري المختلط، الذي تتمازج فيه عناصر المَلَكية والأرستقراطية والديمقراطية.

نبذة عن المؤلف: جوفانّي بريزّي أستاذ التاريخ القديم في جامعة بولونيا الإيطالية. من أبرز المختصّين في تاريخ حنّبعل والدراسات القرطاجية. يشرف على دَوْريتيْن أكاديميتين: «مجلة التاريخ القديم» و«مجلة الدراسات العسكرية» في إيطاليا. من مؤلفاته أيضا «سكيبيو وحنّبعل» و«غزو بيت المقدس».

الكتاب: أنا حَنّبعل.. يوميات قائد.
تأليف: جوفانّي بريزّي.
الناشر: منشورات لاتيرسا (باري-روما) "باللغة الإيطالية".
سنة النشر: ٢٠١٩.
عدد الصفحات: ٣٣٩ صفحة.

* أكاديمي تونسي مقيم بإيطاليا

التيارات السياسية في الهند عام 2019

د. راجا شيكهاران

فيلابوراتو عبد الكبير*

مؤلف الكتاب الذي درس القانون وحصل على دكتوراه من جامعة كاليكوت هو سكرتير حزب المؤتمر فرع كيرالا ومدير التحرير لجريدة «فيشانام» «وجهة نظر» اليومية الصادرة في كيرالا والناطقة بلسان ذاك الحزب. وهذا الكتاب مجموعة مقالات اختارها المؤلف من عموده الأسبوعي الذي يكتبه في الجريدة المذكورة، وذلك منذ ٥ فيبراير ٢٠١٨ حتى ٧ فبراير ٢٠١٩. والكتاب حلقة مواصلة لكتابه السابق الذي تمّ نشره في العام الماضي بعنوان «سياسة يتغير لونها» والذي صدرت منه حتى الآن ثلاث طبعات.

السنة الجارية ٢٠١٩ في الهند حافلة بأحداث هامة وملحوظة. وفي هذا العام جرت الانتخابات العامة الحاسمة لمستقبل البلاد بعد خمس سنوات من تولي مودي الحكومة. وحيث إن المؤلف أحد مسؤولي حزب المؤتمر فانحيازه تجاه حزبه طبيعي ومفهموم. يحاول من خلال هذه المقالات حفز ناشطي حزبه إلى ميدان العمل وإعدادهم للدفاع عن مبادئه ولمقاومة الهجوم الذي يشنه على حزبه خصوم من أحزاب أخرى. وبعض المقالات يركز فيها على الكشف عن فساد الحكومة المركزية تحت قيادة رئيس الوزراء مودي بينما البعض الآخر يُكثّف عيوب حكومة الجبهة الديموقراطية اليسارية في كيرالا التي يترأسها الحزب الشيوعي الاركسي. ويُلاحظ الكاتب أن انحطاط الحركات الاشتراكية وصعود الأحزاب المحلية هما السببان الرئيسان لعدم الاستقرار السياسي الراهن في الهند وتَشَكُّل ظروف صالحة للقوى الهندوسية المتطرفة. ويتمنى أن ينهض حزب المؤتمر من جديد من رماده كطائر العنقاء. ويدعي أنّه لا توجد في الهند حركة سياسية أبرزت الكفاءة البالغة في القيادة لمواجهة العواصف الهوجاء بثبات حيث تستطيع التأقلم مع الحالات المتغيرة المفاجئة والتغلب أخيرا على جميع الأزمات إلّا حزب المؤتمر القومي الهندي. صحيح، كما يشير إليه المحامي والمحلل السياسي «جايا شانكار» في مقدمة الكتاب، أن حزب المؤتمر كان له دور فاعل في نضال استقلال البلاد من بريطانيا كما في بناء البلاد من جديد في المرحلة اللاحقة. لا ينفي أحد مكانته غير المتساوية في تاريخ الهند الجديد كحزب تولى الحكومة المركزية في دلهي كما تولى الحكم في الولايات زهاء نصف قرن بعد الاستقلال. المراقبون السياسيون في الغرب بُعَيد استقلال الهند تنبأوا أنّ الديموقراطية بمنح حق التصويت لكل بالغ العمر في الانتخابات لا تنجح في قارة متخلفة جدا في التعليم مثل الهند التي يعيش أغلبية شعبها في جهالة وخزعبلات، غير أنّ جوهر لال نهرو أحد قادة حزب المؤتمر ورئيس الوزراء الأسبق صحّح فهمهم الخاطئ بتطبيق هذا النظام بنجاح كامل. ودستور الهند حتى بعد ١٠٣ تعديل فيه لا يزال ساري المفعول حتى الآن. وقد مضى أكثر من سبعين سنة بعد استقلال البلاد ولكن تَوَحُّد الهند الجغرافي يظلّ بلا خلل بالرغم من الأعمال التخريبية من قبل الحركات الانفصالية في بعض مناطق البلاد وخاصة في كشمير وفي شرق الشمال. هي لا تزال تبقى مثلا أعلى لتعايش الأقليات العرقية والدينية واللغوية في أرضها الشاسعة كما أشار إليه بطرس غالي. بينما باكستان التي أتت في حيز الوجود مع استقلال الهند أخذت ١٠ سنوات لإعداد دستورها ولكن لم يُقدَّر له إلا عمر سنتين حيث سرعان ما أُلغي بعد الانقلاب العسكري الذي حدث خلال تلك المدة القصيرة ثم انفصلت منها قارتها الشرقية على أساس اللغة بعد أقل من ٢٥ سنة لكي تصبح بلدا مستقلا باسم «بنغلاديش».

ويشير الكاتب إلى بعض الميزات الجوهرية في التيارات السياسية في الهند، ويقسّم طبائع الأحزاب السياسية في الهند إلى ثلاثة أقسام. أحزاب ذات جذور ثابتة وأحزاب جامدة غير متطورة وأحزاب تَطلع في أفق السياسة كظواهر مؤقتة ثم تغيب فورا عن المشهد. من بين هذه الأحزاب يَعُدّ حزب المؤتمر حزبا راسخ الجذور والاستقرار. ويقول إنّ تاريخ ما بعد مرحلة استقلال الهند يؤكد على تَمرْكُز السياسة حول هذا الحزب العريق حيث انقسمت السياسة في الهند بين مؤيديه ومخالفيه. ويرى أنّ شعار «نحو الهند بدون حزب المؤتمر» الذي يرفعه الآن الحزب الحاكم بي. جيه. بي. يدل على أنّ حزب المؤتمر جزء لا يتجزأ من السياسة الهندية. على مر الزمان، وكأي حزب، ضعفت شوكة هذا الحزب أيضا في الآونة الأخيرة وفقد شعبيته ولكن لم يبرز حزب من حركات اشتراكية أو شيوعية بديلا له. نتيجة للاختلافات الداخلية تعرضت الحركة الاشتراكية بقيادة «لوهيا» للانتشار والتشتت بعد أن كانت في زمان معارضةً قويةً لحزب المؤتمر. وحزب الاستقلال («سواتنترا») «اليميني بقيادة راجا جوبال آتشاريا» الذي كان الحاكم العام فور استقلال البلاد لا نستطيع أن نجد له أي أثر الآن. نبرة «بيلو مودي» أحد قياديي هذا الحزب كانت ترن داخل قاعة البرلمان مزعجة اندیرا غاندي في السبعينيات من القرن الماضي. هذا الحزب الذي انتهج النموذج الأمريكي من سياسة التنمية الرأسمالية أيضا قد غدا الآن في خبر كان. وفي مقال آخر يصف الحزب الشيوعي شجرة بونساي في الحقل السياسي الهندي. نتيجة لانقسام الحزب الشيوعي إلى شقين عام ١٩٦٤ آلت حماسة تلك الحركة النشيطة إلى الأفول في أفق السياسة الهندية. وفي نفس الوقت تعززت أرضية التطرف الهندوسي بذراعيه الثقافي والسياسي، الذراع الثقافي الذي يمثله «راشتريا سوايام سيفاك سنجه» (آر. أس. أس بالاختصار) والذراع السياسي الذي كان يمثله حزب«جاناسنجه» في البداية، كان حزب «جاناسنجه» الذي تَشكّل عام ١٩٥١ تسيطر عليه القوى الهندوسية المتطرفة مثل آر. أس. أس. وقوى الإقطاعية القديمة. اتحد «جانا سنجه» مع حزب «سواتنترا» والأحزاب الاشتراكية وحزب «لوك دال» والشق المنشق من حزب مؤتمر اندیرا غاندي من الأحزاب المعارضة بحيث تقود إلى تشكيل حزب واحد موحد تحت لافتة «حزب جاناتا» بفضل الجهود المبذولة من قبل «جايابراكاش نارايان» قائد النضال ضد حالة الطوارئ التي أعلنتها اندیرا غاندي عام ١٩٧٥. انهار حزب المؤتمر أول مرة في تاريخه في الانتخابات العامة التي جرت بعد حالة الطوارئ عام ١٩٧٨ حتى فقدت اندیرا غاندي مقعدها في دائرة انتخابها في «راي بريلي». ولكن حزب «جاناتا» لم يُقدّر له العمر الطويل، فشلت تجربة حزب «جانتا» حيث تعرَّض للتشقق مما أدى لعودة حزب «جاناسانجه» مرة ثانية إلى هويته القديمة باسم «بهاراتييا جاناتا بارتي»(بي. جيه. بي) الجديد. فلم تستطع حكومة «جانتا»، الأولى من النوع اليميني في تاريخ الهند، أن تكمّل مدتها المحددة. نتيجة لسقوط حكومة «جناتا». لمّا جرت الانتخابات العامة عام ١٩٨٠ فاز حزب المؤتمر بأغلبية كاسحة وحصل على أصوات أكثر مما حصل عليه حتى في انتخابات ١٩٧١. ويقول الكاتب إنّ هذا الواقع يدل على أنّ حزب المؤتمر يتمتع بقوة داخلية تجعله يتغلب على الأزمات مهما بلغت. ويشير إلى أن هذا المعدل من الصعود والهبوط نراه في تاريخ حزب المؤتمر بين فينة وأخرى. فمثلا في الانتخابات العامة الرابعة عام ١٩٦٧ عانى الحزب من نقص حاد في عدد المقاعد التي فاز بها. ومن ١٦ ولاية لم يستطع الحزب تحقيق الفوز إلا في ٨ ولايات، وفي

بعض الولايات المتبقية سيطرت عليها حكومات ائتلاف من الأحزاب اليمينية والأحزاب المحلية بينما سيطرت على ولاية كيرالا والبنغال حكومة جبهة التحالف اليساري تحت قيادة الحزب الشيوعي الماركسي.

ولكن في عام ١٩٧١ خاضت انديرا غاندي معركة الانتخابات العامة بهتاف استئصال الفقر ووصلت البرلمانَ بتحقيق ثلثي الأغلبية من الأعضاء. وكان ذلك بعد انقسام حزبها بشقين أحدهما ما يوصف بالشق التقدمي بقيادتها والآخر ما يوصف بالرجعي اليميني بقيادة المحافظين القدماء. ويلاحَظ أيضا أن «التحالف الكبير» المؤتلَف بـ «سواتانترا» والاشتراكيين بقيادة «لوهيا» وحزب «جاناسانجه» المتطرف الهندوسي وبعض الأحزاب المحلية حتى الشيوعيين من المعارضة مُني في هذه الانتخابات بهزيمة مُذلة محبطة. وجدير بالذكر أنّ هذا الفوز كان بعد أن تنبأ الخبراء السياسيون قبل خمس سنوات أنّ دور حزب المؤتمر في السياسة الهندية قد انتهى.

وبعد اغتيال إنديرا لَمّا جرت الانتخابات العامة عام ١٩٨٤ سيطر حزب المؤتمر على البرلمان بقيادة «راجيف غاندي» ابن انديرا بأغلبية ثلاثة الأرباع من المقاعد. ولكن بدأ العد التنازلي مرة أخرى منذ الانتخابات عام ١٩٨٩ حيث لم يحالفه الحظ في تشكيل الحكومة المركزية. وفي عام ١٩٩١ اضطر الحزب للاستعانة بأحزاب أخرى في تشكيل الحكومة بقيادة «ناراسيمها راو»، إلا أنّه شهد هبوطه في انتخابات ١٩٩٦ بصعود الحزب المتطرف الهندوسي بي. جيه. بي. كأكبر حزب في البرلمان لكي يتم تشكيل الحكومة بقيادة «فاجباي»، غير أنّ عمر حكومته كان ١٣ يوما فقط. وخلفته حكومة الجبهة المتحدة بقيادة «ديفا غودا» زعيم حزب «جانتا دال المتحد»، أول رئيس وزراء هندي من جنوب الهند، كانت الحكومة أبعدت حزبي المؤتمر وبي. جيه. بي. وخلال سنتي ١٩٩٨ و١٩٩٩ ترأس الحكومة المركزية أي. كيه. غوجرال أيضا لمدة قصيرة. وفي عام ١٩٩٩ تمكن التحالف الديموقرطي الوطني من تشكيل الحكومة برئاسة فاجباي قائد بي. جيه. بي الهندوسي وامتدت ولايته لمدة كاملة من خمس سنوات. كانت فترة ما بين ١٩٩٦ - ٢٠٠٤ فترة غياب لحزب المؤتمر عن عرش السلطة. وفي عام ٢٠٠٤ وصل التحالف التقدمي المتحد بزعامة حزب المؤتمر إلى كرسي الحكومة باختيار «مان موهان سينغ» رئيس الوزراء. وتكرر هذا الفوز في عام ٢٠٠٩ أيضا. وفي الانتخابات النيابية سنة ٢٠١٤ تربع التحالف الديموقراطي الوطني بزعامة بي. جيه. بي. على عرش السلطة وأصبح ناريندرا مودي رئيس الوزراء. وفي هذه الانتخابات حصل بي. جيه. بي وحده الأغلبية المطلقة.

صدر هذا الكتاب قبل إجراء الانتخابات النيابية الأخيرة التي أبرزت نتائجها بفوز مظفر لـ بي. جيه. بي القومي الهندوسي المتطرف خلافا لآمال الأحزاب المعارضة ومؤلف هذا الكتاب. كان الفضاء الموجود قبل الانتخابات صالحا لحزب المؤتمر

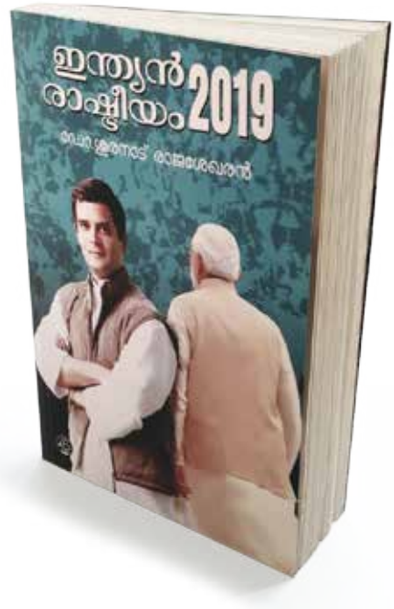

وتحالف بعض الأحزاب المعارضة؛ لأنّ الانتخابات التي جرت في ولايات «راجاستان» و«مادهيا براديش و«تشاتيس غاد» قبل ستة أشهر فقط من الانتخابات النيابية الحالية قد ساعدت حزب المؤتمر للعودة إلى السلطة. وتحت هذه الظروف لم يكن غير بعيد أن يتوقع مثل مؤلف هذا الكتاب الذي ينتمي إلى حزب المؤتمر استنهاض حزبه كطائر العنقاء من رماد الهزمية. ولكنّ الرياح لم تجر كما اشتهت السفن. ويُلاحَظ أن بي. جيه. بي لم يحتفظ فقط بالأغلبية التي حققها في انتخابات ٢٠١٤ بل أحرز عشرين مقعدا جديدًا فصار له ٣٠٣ مقاعد من أصل ٥٤٢ مقعدا بينما حقق الفوزَ حزبُ المؤتمر، حزب الكاتب، ٥٢ دائرة فقط. ولم يستطع أن يفتح الحساب في ١٧ ولاية في شمال الهند. من بين ٥٢ مقعدا كان ٢٠ مقعدا من ولاية كيرالا في جنوب الهند بما فيه دائرة «فاياناد» الذي فاز به راهول غاندي رئيس حزب المؤتمر. ولولا تأييد الناخبين في هذه الدائرة التي تكتظ بالمسلمين وتستحوذ عليها رابطة المسلمين، حزب المسلمين السياسي لَما دخل راهول غاندي قاعة البرلمان؛ حيث فقد دائرة انتخابه التقليدي «أميتي» في «أوتار براديش». ويمكن للمؤلف أن يتسلى بأن ظلت ولاية كيرالا قلعة منيعة أمام بي. جيه. بي دون أن تسمح له أن يفتح فيها الحساب هذه المرة أيضا حيث أحرز حزبه ٢٠ مقعدا من أصل ٢١ مقعدا تاركا المقعد الوحيد للحزب الشيوعي.

إنّ سجلات مودي من الحكم كانت في الحقيقة خالية تماما من إنجازات مذكورة، بل كانت مليئة بإخفاقات مثل الركود الاقتصادي نتيجة لسحب الأوراق النقدية من فئة ٥٠٠ و١٠٠٠ روبية بهدف القضاء على السوق السوداء، ونتيجة لفرض ضرائب على السلع والخدمات، المعروفة اختصارا بـ G.S.T وذلك بهدف خلق سوق هندية مشتركة وكبديل للضرائب المختلفة التي ترفضها حكومات الولايات. اتخذ مودي هذه الإجراءات بدون تشاور مع أعضاء مجلس وزرائه المعنيين وبرفض اقتراح محافظ البنك الاحتياطي آنذاك «راجهورام راجان». كانت النتائج سلبية على اقتصاد البلاد. بعد انتهاء فترة عمل «راجان» لم يمدد مودي مدته حيث عين مكانه «أورجيتا باتيل». ولكن هذا الأخير اضطر للاستقالة من منصبه لما طلب منه مودي الإفراج عن أموال من صندوق احتياط البنك لإنعاش الاقتصاد الراكد. بالرغم من مطالبة المعارضة مرارا بتشكيل لجنة برلمانية للتحقيق في صفقة «رافال» المشبوهة لم يستعد مودي لأن يقبل هذه المطالبة حتى بعد كشف جريدة «هندو» عن بعض الأوراق المتعلقة بها. كانت البطالة في أعلى أوجها في عهد مودي. التأزم في القطاع الزراعي ظل بدون ايجاد حل مما دفع المزارعين من القرى البعيدة إلى مسيرة احتجاج إلى العاصمة. آلاف من المزارعين انتحروا بسبب ديون استلموها من البنوك ولم يستطيعوا تسديدها.

مع كل هذه الأسباب تمكّن مودي من الفوز في الانتخابات الحالية. كيف؟ كان شعار مودي في انتخابات ٢٠١٤ التنمية على جميع الأصعدة، أمّا في الانتخابات الحالية فبدلا من هذا الشعار الزائف قدّم نفسه كمسيح لإنقاذ الوطن، استغل الظروف الناتجة من الهجوم الإرهابي بـ«بولفاما» في كشمير والغارات الجوية ضد باكستان لكسب الفوز في الانتخابات بإيقاظ النزعات القومية الجنونية ذات الأنفاس الشوفينية. جعل الأقلية المسلمة «آخرا» في حدود باكستان لتخويف الهندوس منهم. وخلال الحملات الانتخابية المستعرة استطاع مودي وجماعته أن يجعل الشعب يسير على مطية المشاعر العرقية. ولم يكن عند مودي برنامج سياسي هذه المرة. وليس غريبا أن يصادف تربع مودي على عرش السلطة مرة ثانية في الذكرى السنوية المائة للفاشية، وللحدث أهمية رمزية. لأنّ موسولوني أيضا لم يكن عنده برنامج سياسي عندما تولّى الحكومة في إيطاليا. حين سُئل عن برنامجه كان جوابه: يسألونني ما هو برنامجكم؟ برنامجنا بسيط للغاية؛ نرغب أن نحكم إيطاليا». إذا سُئل مودي عن برنامجه فقد يكون رده أيضا نفس هذا الرد» نرغب أن نحكم الهند». ولكن مسار التاريخ ليس دائما على خط مستقيم؛ بل يكون أيضا على شكل دوراني.

الكتاب: التيارات السياسية في الهند عام ٢٠١٩.

المؤلف: د. راجا شيهاران.

اللغة: ملايالام.

عدد الصفحات: ٢٦٣ صفحة

الناشر: DC Books، كوتايام، كيرالا، الهند.

*** مستعرب هندي**

التاريخ غير المعروف عن التوارث البشري.. ثيودور بورتر

طلال اليزيدي *

في بدايات القرن التَّاسع عشر الميلادي تقريباً قبل تكوين مفاهيم الجينات وعلوم الوراثة، أقدم الأطباء المختصون في مصحات المجانين على تسجيل تقارير عن أسباب الجنون في بعض من مذكراتهم. تقريبًا منذ الوهلة الأولى لتسجيلهم لهذه التقارير أشاروا إلى الوراثة كسبب رئيسي مسبب لهذه الأمراض العقلية، لكن في فترة من الفترات رأى بعض المختصين العاملين في هذه المصحات وبعض المسؤولين السياسيين تزايد أعداد المصابين بالأمراض العقلية، ولذلك بدأوا بتأكيد الحاجة الملحة إلى تحديد تكاثر الأشخاص المصابين بالأمراض العقلية. ومن هنا أصبح المختصون والمسؤولون مهووسين بالتَّعرف على العائلات المُعتلة بمرض عقلي وتوقع نتيجة التزاوج من هذه العائلات.

كتاب جينات بيوت الجنون يعرض القصص غير المقصوصة عن البيانات المستقصاة والمنظمة للتوارث من مستشفيات الأمراض العقلية ومدارس الأطفال وكيف كانت بمثابة العلم الجديد للتوارث البشري. في هذا الكتاب المقنع، يُقدم ثيودور بورتر (Theodore Porter) على جلب الانتباه إلى التاريخ المخبئ لعلوم الجينات والتوارث باستخدام دلائل أرشيفية من أوروبا وأمريكا الشمالية، يتمعن الكاتب في كتابه في استخدام شجرة التوارث، وتعداد المصابين بالأمراض العقلية، واستبانات إحصائية للطب المجتمعي، وبعض البيانات الأخرى من قبل المؤسسات المعنية بالعناية بالمصابين بالأمراض العقلية، وكذلك يستقصي أيضًا الممارسات المبتكرة للعناية بالمصابين القانطين في هذه المؤسسات. ثيودور يجادل أن المختصين في هذه المؤسسات طوروا العديد من الممارسات والأفكار التي أصبحت في الوقت الراهن تتمحور في مجال علوم تحديد النسل المجتمعي. بالإضافة إلى أنَّ المختصين هؤلاء عمقوا من تقديرنا لأخلاقيات العمل في المواقف الخطرة معتمدين على بيانات مستقصاة جعلتهم على حاجز ما بين الانحيازية لأخلاقيات العمل أو تطبيق علم تحديد النسل.

هذا الكتاب بالفعل يجعلنا نتساءل من هو بالفعل الذي اكتشف علوم الجينات؟ في الغالب عند طرح هذا السؤال، الأنظار تتوجه إلى الأشخاص الأربعة، ويليم بتايسون الذي بدوره وضع مفهوم الجينات، وويلهيهم جونسون الذي حدد مفهوم الجين، وتوماس هانت مورجان الذي أيضاً في بدايات القرن العشرين قام بأول تجربة علمية في مجال علوم الجينات والتوارث باستخدام ذبابة الفاكهة. ولكن على الأرجح من بين هؤلاء جريجور مندل يعتبر المكتشف الحقيقي لعلوم الجينات والتوارث وذلك لدوره في تجربة زاوج نبات البازلاء ليكتشف القواعد الرئيسية للتوارث. يعتبر الكاتب أن هذه الأحداث هي في الحقيقة بمثابة الظل الذي يعيقنا عن التعرف على المصدر الأعمق؛ يرى ثيودور أن أول دراسة حقيقية لعلوم الجينات والتوارث كانت تلك الدراسات والتسجيلات الإحصائية في مصحات العناية بالمصابين بالأمراض العقلية في أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر ببريطانيا وأجزاء واسعة من أوروبا وأمريكا. في هذه المستشفيات في وسط الأنين والروائح والعشوائيات جمعت البيانات، وسجلت وصنفت إلى مجموعات وجداول وتوضيحات بيانية، وكانت بمثابة أول تسجيل منظم للأمراض العقلية، ومنه ظهر ما يعرف اليوم بالوراثة. يجادل ثيودور في كتابه «جينات بيت الجنون» أنه خلال ٢٠٠ سنة لم نتمكن حتى الآن من الاعتراف بالغزارة المعرفية لهذا الجانب وذلك بدوره في تعزيز فهمنا لهذا الجانب، الذي مازال مسيطرا على حياة بعض الأفراد والمجتمعات المتأثرين بالأمراض العقلية. ثيودور يجادل أن علم الوراثة لم يظهر كعلم مستقصى من البيانات المجمعة فقط، لكنه ظهر كمجهود دولي لجمع واستقصاء بيانات مرتبطة بالأمراض العقلية للمساعدة على تفسيرها. معظم القادة في هذا المجال أمثال الطبيب النفسي إيتين إسكويرول (Étienne Esquirol) والطبيب جون ثيرنام (John Thurnam) جعلوا من المصحة العقلية في يورك بإنجلترا مرجعًا لكيفية تسجيل البيانات الإحصائية.

حتميا طرق الدراسة في مصحات الأمراض العقلية تغيرت مع الوقت، فالكتابات اليدوية والشرح باستخدام الجداول والشجرة الجينية للمرضى أعطت إلى حد ما مجالا للأدوات الإحصائية، والنظريات الجينية، وكذلك فتحت مجالا إلى الدراسات الضخمة المرتبطة بالجينات في وقتنا الحاضر. يفترض ثيودور أن الكثير من التوقعات والضروريات للشبكة المبعثرة من المعلومات القديمة المتعلقة بالأمراض العقلية، ما زالت موجودة اليوم في البيانات الجينية الضخمة للطب التخصصي الدقيق، ومن وجهة نظره فإنَّ هذه التوقعات والضروريات المبنية على البيانات المستقصاة ما زالت تستخدم اليوم. سواء في عام ١٨٢٠ أو عام ٢٠١٨، هذا النهج دائما يقدم البيولوجيا على الثقافات والإحصاء على السياق المستقصى من فكر المجتمع، ليفتح أبواباً إلى عالم جديد من علوم تحديد النسل.

ذكر ثيودور بورتر في كتابه كيف لموقف مهم جداً لولادة علم جديد كعلوم الجينات والوراثة أن يبقى مخبأً طوال هذه الفترة. والجواب على هذا السؤال في ثلاثة محاور رئيسية، أولا بعد الحرب العالمية الثانية ابتعد الأخصائيون في علوم الجينات كل البعد عن علوم تحديد النسل ومستشفيات الأمراض العقلية بسبب الأسى الذي تزامن مع فترة الحرب، ثانياً تأثير نظام مستشفيات الأمراض العقلية بقي جزئيا غير مكتشف بسبب الوحشية والإهمال للمتعالجين من قبل هذه المؤسسات، لكن يجب النظر خارج هذا الإطار لنتمكن من ملاحظة التصميم من قبل هذه المؤسسات لاستخدام الإحصاء للبيانات المستقصاة لتحديد الأشخاص الذين من الممكن أن يكونوا مصابين بأمراض عقلية، ثالثا كان من السهل عدم الاكتراث إلى شبكة هذه المؤسسات لأنها كانت غير مترابطة وفاقدة للمركزية.

هذه المؤسسات لعلاج الأمراض العقلية بدأت بنية صافية وخالصة، فالعديد من مؤسسي مصحات رعاية الأمراض العقلية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر كانوا يأملون في علاج الناس من الأمراض العقلية من خلال ممارسات إنسانية وأخلاقية، لكن لم تمكث هذه المؤسسات لفترة زمنية طويلة قبل أن تتعرض الى انتقادات مؤثرة وجذرية، ففي عام ١٧٨٨ بعد تقليد الملك جورج الثالث في إنجلترا ملكا أبدى في بعض الأحيان بعضًا من الأعراض التي ترجح إصابته بمرض عقلي، في ذلك الوقت فهم الأمراض العقلية بشكل عام أصبح الى حد ما قضية أمن وطني، والتشخيص العقلي السيكولوجي المدعوم من قبل كتاب المتخصص ويليام بلاك (William Black) وهو كتاب متخصص بالإحصاء المستقصى من أحد مراكز العناية بالأمراض العقلية في لندن، كان دليلا كافيا لإعطاء الحكومة قوة لاستبدال الملك بابنه الوصي على العرش الملك جورج الرابع.

في عدة عقود من السنوات كان التزايد في مراكز الرعاية بالمرضى العقليين مبنياً بشكل أساسي على الإحصاء والأرقام وكذلك باستخدام تعداد السكان لقياس ما بدأ وكأنه نوع من الأوبئة؛ ففي ذلك الوقت مفهوم الأمراض العقلية كان بمثابة المظلة التي تتضمن مدى واسعا من التصرفات التي كانت تعتبر أيضا نوعا من الخلل العقلي، ونفس هذه الممارسات لتشخيص الأمراض العقلية في أنحاء أخرى ساعدت على انتشار وتطوير هذه الممارسات في معظم الجانب المتطور من العالم الغربي في ذلك الوقت، من لندن إلى باريس، وألمانيا، وماساتشوستس. ومصحات العناية بالأمراض العقلية تزايدت وتكاثرت، وربط بينها جانب فعال من التواصل، والسفر، والمؤتمرات، والأطروحات العلمية كالمجلة المتخصصة في هذا المجال المجلة الأمريكية لأمراض الجنون.

في البداية مصحات الأمراض العقلية استقبلت بغرابة نسبة هائلة من الملتحقين، فالزيادة كانت روتينية بنسبة ٥٠٪. أحد المستشفيات في كونيتيكت بالولايات المتحدة أفاد باستقباله نسبه ٩١,٦٪ خلال أربع سنوات متتالية. وخلال أوساط القرن التاسع عشر أدرك المسؤولون في هذه المؤسسات (ما من الممكن أن يدركه المختصون في البيانات الضخمة لسيكولوجيي الجينات) أنه على الرغم من أن علاج هذه الأمراض يبدو بعيد المنال. لكن بعض الأشكال الإحصائية

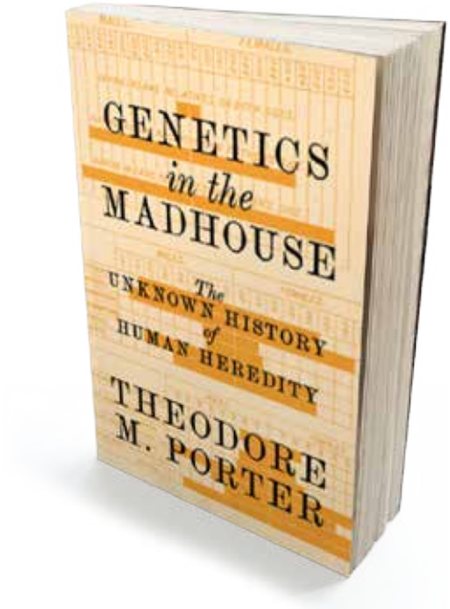

المكتشفة من عدد كبير من الناس قد يؤدي في أحد الأيام إلى إظهار المسبب لهذه الأمراض والعلاج سيعقب ذلك. المسؤولون لهذه المؤسسات اقتنعوا بهذه النظرية وبناءً على ذلك تزايدت المصحات لعلاج الأمراض العقلية.

في النهاية بعد استقصاء بعض الممارسات التي كانت تعتبر نوعا من المسببات للخلل العقلي كالحماس الديني، والأزمة المادية، ثبت الأخصائيون في هذه المصحات على المسبب الرئيسي الذي بقي وهو الشجرة الوراثية للمريض، فالوراثة كانت هي السبب المسبب لكل الأسباب، فالعلماء في هذه المصحات دون أي انتظار وضعوا خطة كانت أشبه بالكارثة، فإذا كان المسبب الأول للأمراض الوراثية هو الوراثة بشكل واضح، إذا فالعلاج والحل كان واضحا أيضًا، وهو منع المصابين بالأمراض العقلية من التكاثر.

في الفصل الأخير من الكتاب بدأ عنوان الفصل بكل وضوح «المختصون في جينات السيكولوجيا تمكنوا من جمع بيانات ضخمة، بعضها لأهداف مخيفه، ١٩٢٠-١٩٣٩». في هذه الفترة تحديد النسل طبق بشكل كبير، وبعد عام ١٩٢٧ قررت المحكمة العليا البرنامج الأمريكي للعقم الإجباري على عشرات الآلاف من الناس الذين اعتبروا إلى حد كبير ناقصين ومختلين عقليا. والألمانيون النازيون بناءً على المثال الأمريكي في ثلاثينات القرن العشرين ١٩٣٠ أجبروا ما يقرب ٤٠٠ ألف شخص على العقم الإجباري. هؤلاء الأشخاص حددوا من قبل النازيين بأنهم معطوبون وراثيا، وفي ١٩٤٠ أطلقوا برنامجا أشبه بالمذبحة حيث أنهم جمعوا أكثر من ١٠ آلاف شخص من المصحات العقلية من كل أنحاء جنوب ألمانيا وسمموا في قلعة جرافنيك (Grafeneck castle).

بورتر ألح أن قصص مصحات الأمراض العقلية هي في الحقيقة قصة العصر، وهي ليست مثل ما يزعم البعض أنها عملية فشل مستقلة لبعض العلماء السيئين؛ فكل المعلومات الجينية المتعلقة بمصحات الأمراض العقلية ساعدت على تطور ونمو ذلك المجال، فالعديد من العلماء وخبراء الجينات والمختصين في هذه المصحات استثمروا العديد من الوقت والجهد في هذا المجال. في الحقيقة لم تكن محض الصدفة أن محارق الهولوكوست وصلت إلى العديد من الضحايا من خلال المصحات العقلية، فهذا المجال البحثي في المصحات العقلية احتوى على العديد من المعلومات والتسجيلات التي ساعدت على ارتكاب حوادث إجرامية كالهولوكوست.

بالنسبة إلى بورتر، فإنَّ الإسهامات المتعلقة بعلوم الوراثة والجينات لمصحات الأمراض العقلية في الحقيقة هي الجذور، والعلوم الحالية في هذا المجال هي الشجرة التي نبتت من هذه الجذور. حاليا العديد من الجهات التجارية في مجال علوم الجينات تتاجر بوعود التمكن من التعرف على جينات تتحكم بالمهارات والأمراض والصفات الشخصية، هذه الجهات عادت إلى الطريقة التقليدية في استقصاء البيانات الجينية من التوارث، بنفس الطريقة الموجودة في المصحات العقلية قبل ٢٠٠ سنه.

الكثير من المختصين سوف يرفضون الأفكار التي اقترحها الكاتب بقوة لكن قراءتهم لهذا الكتاب الشيق الموثق توثيقا جيدا لممارسات طبية في حقبه معينة من الزمن سوف يثبت لهم خلاف ما كانوا يعتقدون.

الكتاب:
Genetics in the madhouse: unknown history of human inheritance

المؤلف: Theodore Porter

تاريخ الإصدار: ٢٠١٨

جهة الإصدار: Princeton University Press

*** كاتب عُماني**

إلى أين ذهب طفلي؟
ناثان شيفريس

أميرة سامي *

موضوع هذا الكتاب يدور حول قضية اختطاف الأطفال المهاجرين من البلدان الإسلامية، خاصة من اليمن. وتعدُّ هذه القضية المؤلمة -والتي لا تزال بعد أكثر من نصف قرن- تشكل جرحًا ونزيفًا بين عائلات المفقودين. ويفتتح الكاتب قصة الأطفال اليمنيين بقوله: «لقد مر حوالي سبعين عامًا منذ بدء «قضية الأطفال اليمنيين»، التي طَغت على حياة أسر المفقودين ولا يزال ظلها الثقيل موجودًا معنا»، اختفى أكثر من ٢٠٠٠ طفل خلال فترة القضية، معظمهم من اليمن، ويتساءل الكاتب: هل من الممكن أن يكون اختفاؤهم هذا نتيجة صدفة أم أوهام؟ هل سيكون لدينا القوة للاعتراف بأن مثل هذه الجريمة قد ارتُكبت في إسرائيل؟ ويذكر الكاتب «أن معظم منكري هذه القضية يعتمد بشكل أساسي على المشاعر بالدرجة الأولى، كما لو كان من الصعب تصديق أن مثل هذا الشيء كان يمكن أن يحدث معنا.

وفي هذا الكتاب، لدينا دراسة منهجية حول ألف شهادة من لجنة التحقيق الحكومية حول هذه القضية، من قبل مئات من أسر المفقودين، ومن خلال إعادة بناء الكاتب لمسار اختفاء الأطفال، كشف فيها عن ترتيب وطريقة هذه الظاهرة، بكل مكوناتها. فكتب استنتاجاته بكل وضوح في هذا الكتاب.

ويذكر الكاتب أنه وحتى الآن اختفى ٢٠٥٠ طفلاً، وهذا العدد ليس النهائي، ومع ذلك، لا تزال هناك حاجة ملحة لإيجاد حل لهذه المسألة لمعرفة نهاية مسارها؟ وإلى أين ذهب الأطفال؟

تحت عنوان «إحياء سياسي، وهجرة كبيرة، و... اختفاء الأطفال»، يذكرالكاتب أنه ومنذ إعلان إسرائيل في مايو ١٩٤٨عن موجات الهجرة التي بدأت من كل أنحاء العالم تقريبا إلى إسرائيل، وبالتوازي مع الظاهرة الكبيرة والمثيرة المتمثلة في تجمع المنفيين من جميع أنحاء العالم، فإن ظاهرة اختفاء الأطفال الصغار من عائلاتهم، والأغلبية الساحقة من المهاجرين من البلدان الإسلامية، خاصة من اليمن، في ذلك الوقت شكلت ظاهرة أصغر في نطاقها، لكنها كانت درامية بنفس القدر بالنسبة للضحايا؛ حيث تم وضع الأطفال في مؤسسات طبية، لا سيما الأطفال الرضع تم وضعهم في مخيمات المهاجرين والمستشفيات في المدن القديمة، وفي بعض الأحيان يتم نقلهم من مؤسسة إلى أخرى، وبعد وقت قصير يرى الوالدان طفلهما -فقد يكون بصحة جيدة أو قد يعاني من مشكلة طبية بسيطة- وقد يتم إخبارهما بوفاته (أو باختفائه) دون أن يكونوا قادرين على رؤية الجثة، أو حضور الجنازة والدفن، أو حتى معرفة مكان القبر.

وتحت عنوان «موجات الاحتجاج المدني ردًا على إنشاء لجان التحقيق»، يذكر الكاتب أنَّ أسر المفقودين اتخذت العديد من المبادرات لاكتشاف الأطفال المفقودين بمجرد اختفائهم وفي السنوات التي تلت ذلك. لكن على مدى أجيال لم تدرك العائلات بعد أن هذه الظاهرة منتشرة على نطاق واسع؛ لهذا كانت محاولاتهم لتتبع آثار أطفالهم لم تتجاوز قضية خاصة بهم. وإضافة إلى ذلك، أدت الظروف القاسية لأسر المفقودين ووضعهم الاجتماعي والاقتصادي المحفوف بالمخاطر إلى أن تكون مبادرات البحث محدودة وتواجه جدارًا مغلقًا. وقد كان الأمر واضحا في منتصف الستينيات تقريبًا، وذلك على خلفية تلقى أوامر بالتجنيد للعديد من المفقودين الذين بلغوا سن التجنيد؛ لأن حالات الغياب كانت متعددة وكشفت أيضًا عن أنماط مماثلة، وازدادت الشكوك حول اختطاف الأطفال. وبدأ هذا النشاط يأخذ الطابع الجماعي. وأنشأت عائلات المفقودين المهاجرين من اليمن «اللجنة العامة لاكتشاف المفقودين الأطفال اليمنيين».

وبعد الاحتجاجات، تأسست اللجنة في العام ١٩٦٧ من قبل وزيري الشرطة والعدل باسم «لجنة التحقيق لاكتشاف الأطفال اليمنيين» ووفقا لتقرير اللجنة، المقدم في العام ١٩٦٨، بشأن الشكاوى التى قدمت إليها لاختفاء ٣٤٢ طفلاً، والتي ادعت في استنتاجاتها أن الغالبية العظمى منهم توفوا بسبب أمراض في المؤسسات الطبية. وأرجعت اللجنة حالات الاختفاء بشكل عام إلى التفسيرات التالية: «الهجرة الجماعية في غضون فترة قصيرة من الزمن، هجرات السكان في المناطق الداخلية من البلاد من مخيم للمهاجرين إلى آخر ومن معسكرات المهاجرين إلى معسكرات العبور وأماكن السكن الأخرى؛ فصل الأطفال عن آبائهم والعلاج في البيوت دون متابعة مع الطبيب أو المستشفيات المعتمدة وارتفاع معدل وفيات الرضع ووجود الاضطرابات المختلفة في سجلات الأسماء في المعسكرات والمؤسسات التي تتعامل مع يهود اليمن المهاجرين».

استيقظتْ القضية مجددا في منتصف الثمانينيات، ويرجع ذلك بشكل رئيسي إلى ازدياد مئات حالات الاختفاء الإضافية، وفي العام ١٩٨٨ أسس رئيس الوزراء آنذاك «لجنة التحقيق في مصير الأطفال اليمنيين المفقودين»، برئاسة القاضي الدكتور موشيه شلجي. ووفقا لتقرير اللجنة، والذي استمر لمدة ست سنوات، بحلول نهاية عام ١٩٩٤، تم التعامل مع ٥٠٥ حالات غياب، معظمها حالات جديدة لم يتم تقديمها من قبل. زعمت هذه اللجنة أيضًا أن معظم الأطفال ماتوا، وأرجعت ظاهرة الاختفاء إلى نفس الأسباب، وأعلنت أنه «في جميع التحقيقات، لم يتم العثور على دليل يؤدي إلى الخوف من عمل إجرامي».

إن القضية الأصعب التي أثارت الشكوك الخطيرة في الاختطاف المنظم والاتجار بالأطفال، وحتى «تصدير» الأطفال لتبنيهم في الخارج، ظلت توصف بأنها مسألة عرقية ضيقة ينبغي التقليل منها وإزالتها وإسكاتها قدر الإمكان. وللإسكات المؤسسي لهذه القضية العديد من المظاهر، وأهمها الرفض الحازم للطلب المتكرر، منذ الستينيات، لإنشاء لجنة تحقيق حكومية، وهي أعلى محكمة تحقيق في النظام القضائي. ولا تزال القضية محدودة النطاق وتقتصر أساسا على العائلات ذات الأصل اليمني.

وفي ضوء رفض قيادة الدولة لهذه القضية لعقود من الزمن، برزت عدة مجموعات احتجاج في المجتمع المدني. أبرزها في ٢٤ أبريل ١٩٩٤ على الرغم من وجود أولئك الذين عملوا على تعزيز معالجة القضية المعروضة، وقد انضم الكثيرون إلى الحملة التي تبعتها؛ لكنه كان احتجاج الحاخام عوزي مشولام وديكويا الوحيد الذي نجح في اختراق جدار الصمت السياسي والإعلامي حول هذه القضية، وإذا لم يكن الأمر بالنسبة له لكان قد تم محوه نهائيا من الوعي العام. على الرغم من أن الحاخام عوزي مشولام لم يكن من أسر المخطوفين، إلا أنه تعرف على أسر المخطوفين ومعاناتهم. وانطلاقا من إدراكه أنه في غضون بضع سنوات لن يكون هناك أي شاهد

على هذه القضية، وشرع في حملة لا هوادة فيها ولم يسبق لها في تاريخ النضالات الاجتماعية، وكان مطلبه هو إنشاء لجنة حكومية للتحقيق في جلسة علنية، وكشف الحقيقة في هذه القضية، والقيام بإصلاح وطني. وقد قاد الحاخام مشولام القضية بشكل حازم، رغم ما تعرض له من حملة تشهير واغتيال وإراقة دماء، إلا أن هذا لم يضعفه ولم يتخل عن القضية الأخلاقية التي يؤمن بها، وتم القبض على الحاخام مشولام وغيره من الناشطين وتم تقديمهم للمحاكمة فيما بعد. ولم ترفض المحكمة ادعاءات الحاخام فيما يتعلق بالاختطاف والإسكات فحسب، بل وصف هو نفسه بانتهاك القانون وحكم عليه بالسجن ثماني سنوات. ومع ذلك، لم تنجح محاولة قمع الاحتجاج وإغلاق الأفواه بالسجن وازداد الاحتجاج في المجتمع الإسرائيلي وبعد سلسلة طويلة من الأحداث والتجمعات والمظاهرات تم إنشاء لجنة تحقيق حكومية.

وأخيراً استسلمت الحكومة، وفي اجتماعها في ٨ يناير ١٩٩٥ تقرر إنشاء «لجنة تحقيق حكومية في اختفاء الأطفال بين المهاجرين اليمنيين في السنوات ١٩٤٨-١٩٥٤»، تم انتخاب يهودا كوهين رئيسًا للجنة، والذي كان يبلغ من العمر ثمانين عامًا في وقت تعيينه. وفي العام ١٩٩٩، تم استبدال اللجنة بالقاضي يعقوب قدمي، والأعضاء الآخرون في اللجنة هم: القاضية داليا كوفيل والميجور جنرال ديفيد ميمون. وقد عملت هذه اللجنة أيضًا لفترة طويلة جدًا من الزمن منذ إنشائها، ومرت ستة أشهر منذ أن بدأت عملها في يونيو ١٩٩٥؛ ومر أكثر من ثلاث سنوات قبل أن تنتهي من سماع الشهادات في مارس ١٩٩٨؛ وقد مر ما يقرب من سبع سنوات منذ إنشائها، حتى أكملت عملها ووضع تقريرها النهائي على الطاولة في نوفمبر ٢٠٠١. ومثل اللجان التي سبقتها، فعلت لجنة الدولة كل ما في وسعها لتبييض هذه القضية، ونفت على هذا النحو ادعاء الاختطاف المؤسس، وقررت أن الغالبية العظمى من الأطفال قد ماتوا، وقضت بأنه حتى فيما يتعلق بعشرات الحالات التي لا تزال مفقودة، فإن الدولة ليست مسؤولة بأي شكل من الأشكال.

ولكن على عكس اللجنتين السابقتين، اللتين كانتا تعملان سرًا وكانت نتائجهما عبارة عن ملخصين موجزين، تصرفت اللجنة الأخيرة، لجنة الدولة، في جلستها العلنية كالآتي: كانت مناقشاتها في معظمها مفتوحة للجمهور، وكانت بروتوكولاتها ما توصلت إليه خلال فترة نشاطها، وتضمن تقريرها ثلاثة مجلدات سميكة. تجدر الإشارة إلى أنه كانت هناك فترة قصيرة تم خلالها إغلاق البروتوكولات أمام الجمهور، ولكن بسبب الاحتجاجات العامة أعيد فتحها في نهاية عام ٢٠١٦، وتم وضعها على موقع أرشيف الدولة مع مجموعة متنوعة من المواد الأخرى من اللجان الثلاث.

وقدمت اللجنة ما يقرب من ألف شهادة: مئات الشهادات من العائلات بشأن اختفاء ٨١٤ طفلاً، وعشرات الشهادات من أعضاء من داخلها. وتم تقديم المواد التي تم جمعها خلال عمل اللجنة، خاصة الشهادات نفسها، إلى الجمهور لأول مرة بعد عقود من الصمت، والإسكات والإخفاء من قبل الدولة مجموعة واسعة من البيانات، والتي تتيح أخيرًا الوصول لاستكشاف الحقيقة.

ويوضح الكتاب أنَّ هذه الأدلة والشهادات التي قدمت كانت أساسا من قبل الآباء والجامعيين والتي لا تزال مسموعة، وهي بالطبع ثمار كفاح الحاخام ميشولام، ولولا هذه الأدلة لما ظهر هذا الكتاب إلى النور. وأوضح الكاتب أنه تعرف على الحاخام مشولام، عندما اندلعت الأحداث حول منزله في يهودا، وذهب إلى هناك لمقابلة عائلات المفقودين، ثم انضم لاحقا إلى موجة الاحتجاج التي قادها ومع التصفية العدوانية للاحتجاج، والاتهام الذي وجهه له بأنه عمل لدى الحاخام مشولام تم إرساله إلى السجن لمدة أربع سنوات. ويوضح الكاتب أنه وبسبب مُشاركته في هذه القضية تم تقييمه على أنه «شخص خطير جدًا لأمن الدولة»، كما ذكرت.

ويذكر الكاتب «أنه خلال سجنه في السنوات الثلاث من ١٩٩٤-١٩٩٧ أمضى معظمها في مرحلة الإدلاء بالشهادة في لجنة التحقيق الحكومية (١٩٩٥-١٩٩٨) ومن خلال وساطة المحامين، تم إحضار محاضر الشهادات التي عقدت في جلسات المحكمة العلنية إلى السجن بترتيبها الصحيح. قرأت الشهادات وتحليلها واستجوبتها، حتى بعد الإفراج عني من السجن، واصلت قراءة محاضر اللجنة «من منطلق أخلاقي ودينى» حتى نهاية مرحلة الشهادة في العام ١٩٩٨. وعلى الرغم من أنني قد توصلت بالفعل إلى استنتاجات قاطعة حول هذه القضية، فقد قررت الانتظار حتى صدور قرار اللجنة، وعلى أمل خافت أن تكشف الحقيقة».

كما يضيف الكاتب قائلا: «في نوفمبر ٢٠٠١، وبعد أن نشرت اللجنة استنتاجاتها، أصبح من الواضح لي أن تقريرها ينفي تمامًا ليس فقط ما هو واضح من شهادات أسر المفقودين، بل وأيضا ما تدل عليه معظم شهادات الأسرى. وقررت اللجنة أن سلوك الدولة كان صحيحًا، و«ترسيخ» هذا البيان من خلال القراءة الانتقائية للشهادات واستخدام مجموعة متنوعة من التلاعب. و«إسناد» دعوى الوفاة من خلال تقديم شهادات الوفاة، على الرغم من أن المؤامرة لإخفاء الأطفال تضمنت تزويرا في هذه الوثائق».

ويوضح الكاتب أنه وبمجرد نشر التقرير، بدأ في كتابة هذه الدراسة، التي تستند لحد كبير إلى الشهادات المقدمة إلى اللجنة، إلى جانب المواد الأخرى التي كانت مخصصة لأعضائها بشكل أساسي: المقالات الصحفية والمذكرات والمقابلات والتقارير الإحصائية. وأكمل الكتاب: «لكن محاولاتي لنشر الكتاب لم تنجح، بسبب قلة الاهتمام واللامبالاة لدى الناشرين ووسائل الإعلام التي اتصلت بها». كما أوضح أنه على مر السنين، قدم أجزاء مختلفة منه في محاضرات في مختلف المؤسسات الأكاديمية والعامة، بما في ذلك حلقات دراسية في جامعتى بار إيلان وبن تسفي، واللجنة الخاصة المعنية بموضوع الأطفال اليمنيين في الكنيست، ومؤخراً في ندوة مركز بيغن.

وبعد مرور بضع سنوات، أصبحت شروط نشر هذه الدراسة التي تم تحديثها وتطويرها على مر السنين واضحة. وبمرور الوقت، تزايدت الشكاوى حول حالات اختفاء الأطفال، ويبلغ عددها اليوم ٢٠٥٠، وقد أرفق الكاتب قائمة أسماء هؤلاء الأطفال في نهاية هذا الكتاب، وهي في حد ذاتها وثيقة مؤلمة وكئيبة.

ويتساءل الكاتب في النهاية: هل سيقرأ الجمهور ويحكم: هل قضية الأطفال اليمنيين قصة بريئة من قصص وفيات الأطفال المرضى مثلما استنتجت لجنة التحقيق الحكومية، أم سيذكرون أن تقرير اللجنة قد طمس جريمة الاختطاف المنهجي للأطفال؟ وما هي نتائج عملية التأسيس التي خلفها قادة الهجرة ومؤسسات الدولة وقادتها؟

- الكتاب: «إلى أين ذهب طفلي؟ قصة الأطفال اليمنيين: الاختطاف والإنكار».
- المؤلف: ناثان شيفريس.
- الناشر: يديعوت سفاريم، ٢٠١٩، باللغة العبرية.
- عدد الصفحات: ٨٥٦ صفحة.

*** أكاديمية مصرية**

((لا أحد يريدهم)): أوروبا واللاجئون ليندا بولمان

سعيد الجريري *

جملة «لا أحد يريدهم» الصادمة - التي اختارتها الهولندية ليندا بولمان عنواناً لكتابها عن أوروبا واللاجئين - هي في الأصل ترجمة "Keiner will sie haben" ذلك العنوان البارز لمقال في صحيفة فولكيشر بيوباختر الألمانية - الناطقة باسم الحزب النازي آنذاك - يوم ١٣ يوليو ١٩٣٨، إثر انتهاء اجتماع اللجنة الحكومية الدولية المعنية باللاجئين السياسيين (IGCPR)، الذي عادة ما يطلق عليه مؤتمر إيفيان. ويأتي هذا الكتاب بعد ثلاثة كتب اشتغلت فيها على قضايا حساسة متعلقة بالمساعدات الإنسانية والتدخل، أثارت ضجة واهتماماً على نطاق واسع، هي: We Did Nothing - War Games - The Crisis Caravan

تستقصي بولمان في كتابها الجديد تطور الاستراتيجية الأوروبية في ما تسميه الحرب على اللاجئين (والمهاجرين غير الشرعيين)، مبتدئةً من مدينة إيفيان الفرنسية عام ١٩٣٨ حيث أول حملة دولية حول أزمة اللاجئين، إلى معسكرات اللاجئين في أوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية، مروراً بـ«الجيوب الآمنة» في البلقان في التسعينيات، وتأخذ القارئ في رحلة مدهشة خلال الحرب الباردة إلى مخيمات اللاجئين الضخمة في القارة الإفريقية، حيث تنفذ مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين في أوروبا «سياسة الاحتواء» و«تغليف» مشكلة اللاجئين، و«النازحين داخلياً»، والخوذات الزرقاء في زامبيا، وموظفي الإغاثة، ومحتالي اللجوء والمهرّبين عبر البحر الأبيض المتوسط، لتنهي الرحلة في جزيرة ليسبوس اليونانية التي تعد مركز أكبر أزمة أوروبية للاجئين منذ نهاية ثلاثينيات القرن الماضي. وتصف بولمان الطاقة والإبداع والموارد المالية التي تستثمرها الدول الأوروبية في حربها ضد المهاجرين - سواء كانوا باحثين عن الثروة أو لاجئين «حسني النية» على حد تعبيرها، وتفند الحجج التي قدمتها حكومات أوروبا الغربية بعدم السماح للاجئين بالدخول حينئذ التي لا تختلف عما هي عليه الآن من حيث إنّ «المهاجرين» لن يكونوا متوافقين مع المعايير والقيم الوطنية، وسيأخذون الوظائف والمنازل، وسيتخفى المجرمون ومثيرو المشاكل بين اللاجئين، وسيهددون، من ثمّ، الأمن القومي والنسيج الاجتماعي.

يتألف الكتاب من أربعة أقسام رئيسة: الحرب العالمية الثانية - الحرب الباردة - الاتحاد الأوروبي في التسعينيات - الاتحاد الأوروبي الآن. وتتضمن تلك الأقسام عشرة فصول، استقصت فيها المؤلفة موضوع بحثها عن أوربا واللاجئين خلال ثمانين عاماً: إيفيان: «لا أحد يريدهم» - ثقل الحرب - جنيف ومعاهدة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة - مواليد التسول: مفوضية الأمم المتحدة السامية لشؤون اللاجئين - حالة البطة الدولية في أمريكا - التغليف - الغسيل الأزرق - الجيوب الآمنة - الإعادة إلى الوطن - صفقات بونجابونجا مع الحلفاء: أوروبا صانعة الصفقة: مع البلدان المغاربية، مع الصومال، مع إثيوبيا، مع القذافي، مع البشير مرتكب الإبادة الجماعية السودانية، مع ملك المغرب، الصفقة الأوروبية التركية.

في مدخل يشرّح موقف أوروبا من اللاجئين ترى بولمان أنّ الأوروبيين يحبون التظاهر بالبراءة، وأنّهم يعيشون في حصن ضعيف، ويدافعون عن أنفسهم باستمرار ضد جحافل اللاجئين المزيفين الجشعين الذين يحاولون فتح ثغرة في الجدار، لكن هناك من يتجاهل أدوار الدول الأوروبية في الحروب، والأوضاع البائسة التي يهرب منها الناس، وفي التلوث البيئي الذي تتسبب فيه الشركات الأوروبية، فعندما انتهت الحرب الباردة، كان هناك ستة وثلاثون صراعًا مسلحًا كان للدول الأوروبية (والولايات المتحدة الأمريكية) أدوار فيها جميعاً، فقد دعمت، من الناحية العملية، تلك الحروب سياسيًا أو ماليًا، وباعت الأسلحة للأطراف المتحاربة، وساعدت الحكام الديكتاتوريين على البقاء في السلطة، وشاركت في السياسات التي أفقرت الشعوب، وانتهكت حقوقها السياسية والإنسانية. لكن الزعماء السياسيين الأوروبيين (والأمريكيين) يقدمون اللاجئين الخارجين من الفوضى، دائماً، باعتبارهم مشكلة معزولة، وليسوا نتيجة طبيعية لسياستهم الخارجية.

من عام ١٩٣٨ إلى الآن ثمانون عاماً من سياسة الهجرة الأوروبية، نصل بشكل عام إلى الاستنتاج نفسه « تقول أولمان » فغالباً ما كان التمييز بين المهاجرين واللاجئين صعباً منذ أوائل التسعينيات، قبل عامين من نشوء الاتحاد الأوروبي، في عام ١٩٩١ كانت الدول الأوروبية أكثر تقييداً للهجرة مما فعلت بالفعل: بدون تأشيرة دخول، لم يعد يُسمح للعمال الموسميين من المغرب والجزائر وتونس في الأراضي الأوروبية على سبتة ومليلية المغربيتين، فأصبح الوصول القانوني إلى أوروبا أكثر صعوبة، بل مستحيل تقريباً بالنسبة لجزء كبير من سكان العالم. الأمر الذي نشّط حركة تهريب المهاجرين واللاجئين بمغامرات بحرية خطيرة، أو عبر الجو بوثائق مزوّرة، وبدون تأشيرة، في تشابك لا ينفصم. إنّها (هجرة) مختلطة ناجمة عن الفقر وأنظمة الحكم الفاشلة وانتهاكات حقوق الإنسان والصراعات المسلحة، ولذلك فالكاتبة تستخدم مصطلح «اللاجئين والمهاجرين» في كتابها في كثير من الأحيان، لإنصاف هذا المزيج: الأمل في حياة أفضل و/ أو أكثر أماناً في أوروبا. لكن إجابة أوروبا - تقول أولمان - بسيطة للغاية: فقط أبقِ الجميع خارجاً قدر الإمكان.

لم يحدث في تاريخ الاتحاد الأوروبي توزيع نسبي لأعباء اللاجئين وفق السياسة الأوروبية المشتركة، وكل دولة تراقب عن كثب ما تحصل عليه جيرانها، قلةً أو كثرةً، فمنطقياً ينبغي أن يكون من شأن سياسة اللجوء الأوروبية أن تجعل الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي مسؤولة بشكل مشترك عن الوافدين. لكن بالكاد يمكن تخيل مستوى أكبر للرعب في الدول الأعضاء الواقعة في الشمال، لأنّ معظم اللاجئين يصلون إلى أوروبا عبر الدول الواقعة في الجنوب. تشير الكاتبة، على سبيل المثال، إلى مارك روته رئيس الوزراء الهولندي وتعليقه، في برنامج تلفزيوني، على تهديد معمر القذافي عند بدء الانتفاضة الليبية في فبراير ٢٠١١ «بملايين» اللاجئين الذين سيعبرون إلى إيطاليا إذا تخلت عنه أوروبا ووقعت ليبيا في الفوضى. سأله المذيع بول ويتمان عما ينبغي أن تفعله أوروبا إذا كان «كل هؤلاء اللاجئين يريدون أن يسلكوا الطريق إلينا»، فقال: محاولة منع ذلك، من

خلال ضمان وجود أكبر قد ممكن من مراكز الاستقبال في المنطقة. فسأله المذيع: وإذا لم ينجح ذلك، وكان هؤلاء الأشخاص يحاولون الوصول إلى أوروبا. فماذا إذاً؟ فأجاب: تلك هي مسؤولية البلد الذي يصلون إليه أولاً. فتساءل المذيع: أليس هذا غير عادل بعض الشيء؟ لأنّ هذا البلد هو الأقرب، وهو في الغالب إيطاليا. فأجاب مارك روته: حسناً، هذا من سوء حظها، لكن مواقع البلدان لها مزايا وعيوب. وجزيرة لامبيدوسا في البحر الأبيض المتوسط هي في الغالب الموقع الأول الذي يذهب إليه الناس.

منذ نشوء الاتحاد الأوروبي غرق أو توفي أكثر من ٢٥٠٠٠ إنساناً من جراء العطش والجوع في البحر الأبيض المتوسط. لكن السياسيين يصدرون عن خطاب تبريري، ففي مقابلة،عام ٢٠١٦ ، مع كاتي بيري عضو البرلمان الأوروبي، قالت: «الكثير من العابرين الغارقين قذفهم البحر إلى لامبيدوسا، أو تمّ العثور على جثثهم في شباك الصيد، ولكن هذه كانت دائمًا مشكلة إيطاليا. لامبيدوسا أقرب إلى إفريقيا من البر الأوروبي. لم نر صور الأشخاص الغارقين في بروكسل».

ولكن ماذا عن مركز الاستقبال المحلي لطالبي اللجوء في لامبيدوسا؟ تشير الكاتبة إلى زيارة رئيس المفوضية الأوروبية مع رئيس الوزراء الإيطالي على إثر حادثة غرق قارب ليبي في أكتوبر ٢٠١٣ قبالة ساحل لامبيدوسا وعلى متنه خمسمائة لاجئ ومهاجر، فالمساحة تتسع لـ ٨٥٠ شخصاً، في حين يكون هناك دائماً حوالي ٤٠٠٠ شخص، في ظروف مهينة. غير أن هناك من لا يزال يقول: إنه من سوء حظ الموتى، ومن سوء حظ إيطاليا. لكن بعد ذلك كان صيف ٢٠١٥ الذي أغرق الاتحاد الأوروبي تماماً بأمواج اللاجئين، ولاسيما بعد الحرب الكارثية في سوريا، وكان من المفترض أن يخلو الوضع - تقول أولمان - من المشاكل لو كانت هناك سياسات مشتركة.

ترسم الكاتبة صورة مقلقة عن تعاملات أوروبا مع اللاجئين، فهي لم تؤلف كتابها لتجعل الأوروبيين يشعرون بالرضا بأن كل شيء على مايرام، إذ ترى أن وعد عام ١٩٥١ الذي استندت إليه اتفاقية الأمم المتحدة للاجئين الناص على أن «لن يحدث ذلك مرة أخرى» لم يترتب عليه شيء، فمازال الحال على ما هو عليه، وما زال صدى عبارة الصحيفة النازية «لا أحد يريدهم» يتردد، بشكل أو بآخر، ومازالت صورة اللاجئ النمطية سيئة تماماً مثلما كانت في عام ١٩٣٨.

ثمة مشهد سوريالي تسرده أولمان من معاناتها الميدانية في جزيرة ليسبوس اليونانية عام ٢٠١٥ عندما شاهدت المهاجرين واللاجئين وهم يقفزون من قوارب مطاطية:

«كان ملح البحر في لحاهم وشعورهم، وكانت حقائبهم تقطر ماءً، وكانت الأمهات تبحثن عن مكان يقضي فيه أطفالهن حاجاتهم». تستطيع أولمان أن تتخيل شيئاً من هذا في مخيم للاجئين في أفريقيا، لكن ما حدث كان هنا أوروبا، فلماذا يُمنع هؤلاء الناس، والجزيرة بأكملها تغص بالسياح، وعلى بعد عشرين متراً يتناولون البيتزا، ويضعون زيتاً واقياً من الشمس؟ أردت أن أفهم ما كنت أراه - تقول الكاتبة - وأن أفهم كيف حدث هذا في أوروبا؟ تحاول أوروبا، بكل الوسائل الممكنة، وضع أو حجز اللاجئين في أماكن أخرى منذ عقود، كالمخيمات الضخمة التي بها مئات الآلاف من الأشخاص، في غينيا على سبيل المثال أو أوغندا أو الأردن، الذين يمكن أن يظلوا لأجيال عديدة دون أن يدركوا أي شيء، وأنّهم غير مؤهلين أبداً للجوء، وغالباً لا يسمح لهم بمغادرة مخيّمات مفوضيّة الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين. هؤلاء الناس عالقون ولا أحد يفكر فيهم أبداً، وهذه المخيّمات نسيان حقيقي، فبعد نشوء الاتحاد الأوروبي - تقول أولمان - تمت عسكرة الحدود الخارجية، ودفع ملايين اليوروهات لإيقاف اللاجئين، وأبرمت من أجل ذلك اتفاقات مع إثيوبيا والصومال والجزائر وتونس والمغرب وتركيا، وجوهر معظم تلك الاتفاقات أو الصفقات هو أن تدفع أوروبا للمراقبة الحدودية، في مقابل وقف المهاجرين بغض النظر عما إذا كان هؤلاء الأشخاص ممن يحق لهم الحصول على وضع لاجئ أو ممن هم من طالبي الحظ، فعند صياغة معاهدة اللاجئين حاول القادة الأوربيون منح وضع لاجئ لأصغر مجموعة ممكنة، فالأشخاص الذين تتعرض حياتهم للخطر بسبب الحرب، أو يتعرضون للاضطهاد بسبب أفكارهم الدينية أو السياسية، يحق لهم الحصول على هذا الوضع، لكن بشرط أن يصلوا إلى الأراضي الأوروبية، بينما ينظر إلى الآخرين على أنّهم باحثون عن حظ.

وإذ تنتقد أولمان هذه السياسة بشدة - فالناس قد يفرون من الفقر والجوع لأسباب وجيهة أيضاً - فإنها ترى أنّه من غير الممكن مثلاً استيعاب اللاجئين في المناطق غير المستقرة في شمال إفريقيا والشرق الأوسط، فاللاجئون والمهاجرون الأفارقة الذين تدفع أوروبا بأمراء الحرب الليبيين لإيقافهم في مراكز الاحتجاز، يتعرّضون للتعذيب أو الاغتصاب أو الإعدام أو يتم بيعهم عبيداً. وكذلك يفعل الديكتاتور السوداني المتهم بارتكاب جرائم حرب إذ يعيق حركة اللاجئين والمهاجرين باتفاق، فضلاً عن الاتفاق الأوروبي التركي الذي أقام جداراً في وجه الباحثين عن أمان حقيقي.

إنّ السؤال الكبير في ما يتعلق الأمر بـ«تسونامي اللاجئين» في أوروبا هو كيف يتم الوصول إلى انتهاج سياسة إنسانية للاجئين في أوروبا؟ لذلك فأولمان تضع الحقائق مجردة، بشفافية، وبمعطيات استقصائية موثقة، ما يجعل كتابها وثيقة إنسانية في مواجهة السياسات والإجراءات التي تمارسها الدول الأوروبية، في التعامل مع مشكلة اللاجئين، من جهة، و في دورها في تأجيج بؤر الصراع في المناطق التي يفر منها الناس بحثاً عن الأمان والأوضاع الإنسانية.

كتاب «لا أحد يريدهم.. أوروبا واللاجئون» مقاربة واقعية استقصائية لأزمة لم يتم حسمها إنسانياً منذ ثمانين عاماً، تعتمد فيه الصحفية الهولندية المستقلة ليندا أولمان اتجاهاً يغاير خطاب الخوف على الهوية الثقافية والدينية والوطنية أو التخويف من اللاجئين باتباع سياسة الاحتواء خارج أوروبا، كشكل من أشكال ترحيل الأزمة وخلق أزمات موازية، وترى في سياق الجدل حول هذه الأزمة أن الحل الحقيقي لا يمكن الوصول إليه بإجراءات من قبيل صفقات «الاحتواء»، وإنما يكمن في سياسة إنسانية معقولة باتت ضرورة ليس من أجل اللاجئين والمهاجرين، وإنما من أجل أوروبا نفسها.

الكتاب: لا أحد يريدهم.. أوروبا واللاجئون
المؤلف: ليندا بولمان.
الناشر: يورخن ماس، أمستردام ٢٠١٩ .
اللغة: الهولندية.
عدد الصفحات: ٢٧٩ صفحة.

***باحث زائر في معهد هيغنز للتاريخ الهولندي**

الشرق في الذاكرة الحضارية الألمانية في القرنين التاسع عشر والحادي والعشرين
زهير سوكاح

رضوان ضاوي *

يرصد هذا الكتاب مسار تطور الكتابة الاستشراقية في القرن التاسع عشر والقرن الحادي والعشرين، إذ يسلط الضوء على كيفية تعامل الرحّالين مع الشرق، كما يعرض حصيلة أعمالهم وآفاق تصوراتهم، وأشكال تفاعلهم مع الثقافة الشرقية، وذلك من خلال مواصلة الباحث زهير سوكاح الحفر في قضايا الاستشراق والرحلة باللغة الألمانية، وينطلق الباحث من أطروحة كون الاستشراق الألماني للقرن التاسع عشر لم يكن فقط خطابا علميا خالصا وأكاديميا بل أيضا خطاب استعمار عن الشرق وخطاب هيمنة ذا خلفية أورومركزية باعتباره وسيلة تثبت بها ألمانيا هويتها الجديدة من حيث هي جزء من العالم الغربي. كذلك أكدت نصوص في القرن الحادي والعشرين استمرارية هذا الخطاب من خلال التسويق الهيمني عن الشرق، من أجل تحقيق وظيفة إثبات الهوية زمن ما بعد الاستعمار والعولمة والإرهاب. وكان من الضروري البحث أيضا في العلاقة بين أدب الرحلة لأوروبا الغربية والاستشراق، فقد اعتبر سعيد أدب الرحلة أهم مؤسس نصي ومنتوج استشراقي، وهي أداة ووسيط نصي للاستشراق، فالرحلة جزء أساسي منه، وهي إلى جانب القصة والخرافة والكليشيهات من العدسات التي رأى بها الغربيون الشرق. بالتالي قام الأساس التحليلي والنقدي لهذا البحث على فحص الوظيفة الاستشراقية للنصوص الستة التي اختارها الباحث بعناية لهذا الغرض، من أجل مقارنتها وتتبع تطور ووظيفة خطابات الرحلة الاستشراقية.

تناول زهير سكاح في القسم الأول من كتابه الأفكار الأساسية لأديولوجية الاستشراق وتطورها التاريخي، واهتم الباحث بجنس الرحلة وعلاقتها بالاستشراق وبالسفر إلى الأجنبي الشرقي. واستند الباحث على هذا التأطير النظري لكي يحلل في الجزء الثاني ستة نصوص رحلية من القرن التاسع عشر وبداية القرن الحادي والعشرين. ويعود اختيار الباحث فترة القرن التاسع عشر لأنها تمثل العصر الذهبي للاستشراق وظهرت فيه نصوص رحلية كثيرة عن الشرق خاصة في النصف الأخير من القرن التاسع عشر مما ساهم في تكثيف اهتمام أوروبا الثقافي بالشرق. أما فترة القرن الحادي والعشرين، فقد اختارها الباحث لأنها عصر مكافحة الإرهاب وتصاعد وثيرة العنف والصراع في الشرق الأوسط، مما جعل المشرق مرة أخرى قوة جذب للاستشراق الحديث.

قام الباحث بعرض مقارن لصورة الشرق في نصوص رحلية شاملة من القرن التاسع عشر وبداية القرن الحادي والعشرين، وسد ثغرة مهمة في الإلمام بالعلاقة بين الاستشراق والرحلة ما بعد الاستعمارية. هذا العمل يصبو إلى الإحاطة بجنس الرحلة القديم والجديد من أجل التعامل مع الشرق المتخيل من خلال منهج الكاتب المتجاوز للتخصصات، مثل الأدب والبحث ما بعد الاستعماري، والعلوم الثقافية وعلم التاريخ، ذلك أن البحث يتناول فترة واسعة تشمل نصوصا رحلية من القرن التاسع عشر وبداية القرن الحادي والعشرين. ويصعب تصور واستيهام الشرق بدون جنس الرحلة، فالرحلة وسيلة توثيق نصي مهمة في تجربة الشرق باعتبارها عدسات نرى بها الشرق، بالتالي يتم تناول هذا النوع من توثيق السفر والرحلات كوسيلة لتبيان مدى إدراك الأوروبي للغريب الشرقي، ليس فقط كوجهة سياحية بل أيضا كصورة مضادة للهوية الأوروبية الخاصة، المتمثلة في المركزية الأوروبية التي تعيد اكتشاف آليات استعمار دول تلك البقاع البعيدة، فقد تعرف القراء الأوروبيون على «الشرق» بشكل مكثف، وتم نشر الكتب والصحف والمجلات وكان «الشرق» مقصدا للمسافرين، كما كان للرحلة شعبية كبيرة بين القراء، وكان عمل المستشرقين المسافرين إلى «الشرق» المستعمر هو وضعه في ميزان الوعي الجماعي للمتلقي الأوروبي أثناء وبعد القرن التاسع عشر، في قالب صورة ثابتة للمشرق. وكان المسافر/ الرحّالة في الغالب عضوًا في المجتمع الاستعماري، مساهما في النهاية في تكوين الأساطير حول العالم الشرقي، ومشكلاً للرأي العام في الغرب في اتجاه معين، فبقي «المشرق» - وحتى بعد إنهاء الاستعمار - راسخًا في الذاكرة الأوروبية أو الألمانية باعتباره مقابلاً لهوية أوروبا الثقافية. والرحلة وسيلة نصية قديمة وحديثة ومستقبلية للاستشراق وتحتل مكانًا ثابتًا في التقليد الإيديولوجي المستمر للاستشراق الأوروبي الغربي، لأنها تعمل دائمًا كوسيط نصي مناسب للخطاب الاستشراقي وتطوره. وبالتالي فإن تقرير السفر، حسب إدوارد سعيد، الذي استعان الباحث بنظريته عن الاستشراق في هذا البحث، هو أحد وسائل الإعلام المهمة التي كانت متاحة للاستشراق، خاصة في القرن التاسع عشر، مما مكن الكاتب من طرح إشكالية مركزية حاولت العديد من الدراسات ما بعد الاستعمارية الإحاطة بها، على النحو التالي: كيف يمكن اعتبار أكثر من مليار شخص يعيشون في مناطق مختلفة ومتباعدة من العالم، من بيئات اجتماعية وثقافية غير متجانسة،نعتبرهم ممارسين للعنف وأعداء للمرأة ومتخلفين وخطيرين؟»- وحتى في عصر الرقمنة، يبدو أن هذا النوع من التوثيق النصّي الاستشراقي (أي تقارير الرحلة) لا يزال الحامل والمنتج لانشغال المستشرقين ب«الآخر» غير الغربي. من هنا يأتي طرح الباحث لفرضيتين عالجهما في هذا الكتاب، الأولى تقول بأن الاستشراق الألماني في القرن التاسع عشر لم يكن أقل هيمنة وامبريالية من الاستشراق الإنجليزي أو الفرنسي، والثانية تؤكد على أن هناك استمرارية معاصرة لهذه المواجهة المهيمنة مع الشرق في الذاكرة الثقافية للألمان، ذلك أن ظاهرة الاستشراق تجسد ذلك الاهتمام المستمر لأوروبا بالشرق الذي لا يزال يعمل حتى اليوم بصفته آلية من آليات المواجهة الاستشراقية مع الآخر غير الأوروبي. بالتالي يمكن فهم هذا الجزء باعتباره مكملا ومتمما لأطروحة سعيد في مجال أدب الاستشراق الألماني في علاقته بالهيمنة المستمرة في الاستشراق المعاصر، فقد استعان الباحث في التحليل بستة نصوص رحلية من الرحلة الألمانية للقرن التاسع عشر التي لم يعالجها سعيد في كتابه الذي استبعد الاستشراق الألماني رغم سلطته المتفردة في الموضوع الشرقي. لهذا يوضح هذا العمل مدى إثبات أدب الرحلة الألمانية للقرن التاسع عشر للطابع الاستعماري المهيمن، والأورومركزية واستعمارية الاستشراق الألماني.

وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف ركز في بحثه على نصوص من القرن التاسع عشر والقرن الحادي والعشرين، وعدم اختياره لنصوص من القرن العشرين أو حتى من القرن الثامن عشر لم يكن إهمالاً علميا منه، بل هو مرتبط بالمنهجية المقارنة التي تركز على اختيار فترات زمنية أو أماكن محددة وغيرها للتحليل المقارن، ذلك أن هذا العمل ليس دراسة مسحية، وقد أشار الكاتب بوضوح إلى كل هذه الإجراءات المنهجية في مقدمة كتابه، خاصة أن النصوص الثلاثة المختارة من القرن التاسع عشر قد عرفت استقبالا نقديا كبيرا في ألمانيا وحتى في العالم العربي، فقد ترجمت إلى اللغة العربية (كتاب مالتسان، وكتاب رولفس)، بينما ما زالت تنتظر النصوص الحديثة من القرن الحادي والعشرين دورها في الترجمة إلى العربية، وهذا دور الباحثين العرب المتقنين للغة العربية.

خصص الباحث زهير سوكاح القسم الثاني من كتابه لدراسة تقارير الرحلات الألمانية الستة المختارة من التاسع عشر وبداية القرن الحادي والعشرين ومقارنتها من أجل تحديد طبيعة وتطور ووظائف خطاب الاستشراق. ففي الجزء الأول من القسم الثاني لهذا الكتاب، استطاع المؤلف أن يستخلص الاختلافات الخيالية بين أوروبا المتفوقة حضاريا والمشرق المهزوم والمتخلف من منظور الاستشراق الاستعماري في القرن التاسع عشر، فقد اتفق كل من الرحالة الثلاث هاينريش فون مالتسان (رحلة

حجّي إلى مكة: رحلة إلى المناطق الساحلية والداخلية لبلاد الحجاز- ١٨٧٣) والأمير بوكلار موسكاو (رحلات شرقية-١٨٣٨) وغيرهالد رولفس (إقامتي الأولى بالمغرب- ١٨٦٥) بوضوح تام على صورة المشرق الأجنبي ووظيفتها. وكان هاينريش فون مالتسان قد وصف في كتاب رحلته إلى السعودية حيث تنكر في صفة مسلم، واعتبر أفضل «عارف بالشرق دون منازع» في زمنه إن لم يكن في عصره كله. كما عبر الأمير بوكلار في رحلته إلى الجزائر عن حلمه بشرق رومانسي حالم، وعن انبهاره بالطبيعة الشرقية باعتباره عالم الأنقاض والبدو. أما رولفس فقد دوّن أول رحلة إلى المغرب، وشيد صورة الشرق في مثال رحلة المغرب، فعبر عن انبهاره بالطبيعة الخام والمهملة، وعن خيبة أمله في المشهد الثقافي الشرقي المتهالك في المغرب، وصورة المدينة المغربية الخادعة. وقد اعتبر هؤلاء الرحّالة الثلاثة المشرق فضاء بدائيا، ومتخلفا عن زمنه وواجهوا شرقاً لم يتغير، ولم يتطور منذ أزمنة غابرة، ولم يتأثر بالتحديث الذي عرفته أوروبا في القرن التاسع عشر، كما أنه لا يتماشى مع منزلة المسافر الأوروبي، وهو شرق مدنه متسخة وحداثته مهملة، ويعرف أدنى مستوى له تقنيا واقتصاديا مقارنة مع وطنهم الحديث، ورغم ذلك من صورة الشرق الحالم المفقودة انبهر بوكلار ورولفس بالطبيعة الرومانسية للشرق. تجدر الإشارة إلى أن المسافرين الثلاثة يستخدمون مصطلح «شرق» لكل ما هو غير أوروبي، وغير متحضّر. كما أنّ مصطلح «المشرق» غامض ولا يحتوي سوى كلام معمم للغاية عن مجتمع «شرقي» واحد في النصوص الثلاثة. ويشير مالتسان ورولفس إلى أن الشرقيين لا يمكن أن يكونوا عقلانيين مثل الأوروبيين بسبب دينهم. ويتعاطف هؤلاء الباحثون مع ثقافتهم الأوروبية الحديثة والحضارية، على الرغم من أنهم يصفون الأخير بأنه مضياف. كما تتفق أحكام المسافرين الثلاثة على النساء اللواتي يتعرضن للقمع «المحمدي»، فيحاولون التأكيد على عدم القدرة المفترضة على التطور أو وحشية «الشرقيين». وهذا ينبغي أن يعزز تفوقهم الأوروبي في جميع مجالات الحياة من خلال الإحساس الناتج عن التفوق أو تفوق الأوروبيين على المسافرين الثلاثة الذي يتحول عندهم إلى النقد السلبي باعتباره مجالاً غير أوروبي وبالتالي غير متحضر، فمصطلح الشرق مرادف للانحطاط الثقافي، ويرى مالتسان أوروبا تجسيدا للثقافة المثالية بطابعها المسيحي، وأن الشرق غير المتحضر يجب أن يعتمد على أوروبا، وقد أضاف كل من بوكلار ورولفس شرعية على استعمار المشرق باعتبارها رغبة كامنة في نفوس/كتابات المستشرقين والرحالة الألمان ويمكنها إنقاذ البؤس «الشرقي». ويمثل بوكلر أيضًا مفهومًا متطابقًا، حيث يرى أن موطنه الأوروبي مرادف للحضارة والحداثة. تبعا لذلك، فإن أوروبية «الشرق» هي خطوة ملموسة نحو التحديث والحضارة الإيجابية وتشمل كل ما يمكن أن يكون أوروبيا فقط، وهو ترسيم استعماري عنصري وطبقي مارسه الاستعمار على شعوب الشرق وإفريقيا.

أمّا في الجزء الثاني من الشق التحليلي فيطرح الباحث العديد من الأسئلة ساعدته في معالجة فرضيته الثانية التي أعلن عنها في مقدمة كتابه، وهذه النصوص هي نص (العربية السعودية- في بلاد الإسلام المقدسة- ٢٠٠١) لغيتسيلا رامينغ ليوبولد، ونص

(رحلات في الشرق-٢٠٠٥) لأندرياس بروف، ونص (رحلات في الشرق-٢٠١١) لرودولف هوفنباخ، وهذه الأسئلة هي: هل الصورة الحالية للشرق والإسلام في القرن الحادي والعشرين هي استمرار «حديث» لصورة الشرق والإسلام في القرن التاسع عشر؟ بشكل عام - في عصر ما بعد الاستعمار - هل لا يزال هناك حديث عن الاستشراق الثقافي باعتباره استمرارًا تاريخيًا وعقليًا للاستشراق «الاستعماري»؟

يحاول الكاتب الإجابة على هذه الأسئلة من خلال فحص ثلاثة نصوص سفر حديثة مختارة يدعي مؤلفوها أنها واجهت تجارب أجنبية وسفر حقيقية في «المشرق» في السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين. وقد عرف تصور «التفوق الغربي على «الشرق» استمرارية مركزية في عصر ما بعد الحداثة وأعطى المؤلفون الثلاثة في نصوصهم وجهات نظر شخصية مختلفة عن الغرباء «الشرقيين» الذين سافروا إليهم، وقدموا دون وعي صورة نموذجية ومتطابقة تقريبًا عن «المشرق» التي تتميز أولاً بطابعها «الاستشراقي» وثانياً بوصماتها النمطية متأثرين في هذا بمن سبقهم من الرحالة في القرن التاسع عشر، وهذا يدل بوضوح على التأثير الهائل للاستشراق.

في سياق هذا العمل، يلاحظ الباحث مدى تطابق آراء رامينغ ليوبولد مع مالتسان حول المملكة العربية السعودية في العديد من أوجه التشابه في المحتوى والأيديولوجية، فهي- كما هو الحال في العديد من الكتابات الألمانية الحديثة عن الإسلام- بالكاد يميز بين الإسلام السياسي والإسلام كدين وثقافة. تصف رامينغ - لوبولد الإسلام بأنه اختراع خالص لمحمد وتفترض كذباً أن المسلمين لا يعترفون بالأديان الأخرى، ولا سيما الديانة المسيحية، تُظهر صاحبة البلاغ نفسها القليل من التسامح في حوارها - ليس فقط تجاه الإسلام، ولكن أيضًا تجاه الأديان الأخرى. أما هوفنباخ فيرى في التدين السائد لدى الشخص الغريب أنه عالم مضاد لأوروبا الحديثة. تجدر الإشارة إلى أنه في كثير من الحالات، يوفر مالتسان ورامينغ ليوبولد ، على الرغم من اختلاف عصورهما، تصورًا وتقييمًا متطابقين تقريبًا للبلد المستهدف. إنهما يستخدمان نفس الاستراتيجيات تقريبًا: التعميم والسخرية والمبالغة والإنذار والتحذير من خطر الشرق، وهكذا ، فإن القيم والأعراف والتقاليد التي عرفها الناس منذ أكثر من ١٤٠٠ عام تقاس بالمبادئ الأخلاقية الحالية للثقافة الأوروبية والألمانية. وفي هذا الإطار صور الرحالة بروفه الريفيين في الريف الإيراني باعتبارهم أشخاصا غرباء وأجانب، فيحرص على اختيار وإظهار الأشخاص الذين يرتدون ملابس تقليدية أو فقيرة، ولا سيما البدو العرب أو البدو الرحل في إيران بحياتهم البسيطة المتواضعة الذين يعيشون في خيام مع مواشيهم في البرية، ويقدم المرأة «الشرقية» بوجهة نظر مركزية ، ذلك أن معظم صور بروفه تظهر المرأة الشرقية ضحية لعالمها «الشرقي». ويظهر الرحالة الألماني كيف يعيش المرء هنا في عالم تقليدي يمارس فيه أنشطة بسيطة تماشيا مع عالمه، مما يجعل «المشرق» الحالي مستبعدا من قبل الرحالة بشكل أساسي من متناول الحداثة ومحصنا ضد التحديث والدمقرطة.

يحاول المؤلف أن ينقل للقارئ الألماني تفوق ثقافته من أجل إقناعه بموقف أكثر تشددًا تجاه الإسلام. بمعنى آخر، بالنسبة لإعادة تقييم مركز أوروبا للثقافة أو الدين الأوروبي، فإن شاغل المؤلف الرئيسي هو تخفيض قيمة الثقافة الإسلامية الأجنبية. بهذا المعنى لا يمكن فهم خطاب هؤلاء الرحالة كحلقة وصل بين «الشرق» في القرن التاسع عشر والقرن الحادي والعشرين.

في ختام هذا العرض يمكننا القول إن المؤلف أبرز في مقدمة كتابه وفي العرض التحليلي للنصوص- خاصية التجدد المستمر التي تميز صورة الشرق الثقافية في المؤلفات الألمانية المدروسة في هذا الكتاب، رغم تعدد رهانات الحاضر وتجدد الأسئلة حول موضوعات اشتغال الرحّالة الألمان إلى الشرق. كما أوضح الإسهام الكبير لوسائل الإعلام ودور النشر في نشر وتثبيت استمرارية هذه المعرفة التاريخية للألمان بالشرق. فمن خلال صورة المشرق في نصوص السفر الثلاثة في أوائل القرن الحادي والعشرين، التي تم فحصها في هذا الكتاب، يظل السؤال الرئيسي مطروحا وهو: إلى أي مدى يؤدي الرحّالة المعاصرون وظائفهم الاستشراقية في سياق علاقتهم بالاستشراق؟ وتستمر راهنية المواضيع المركزية، أي الاسلام والمرأة والثقافة، في تقليد الرحلة والاستشراق، في تكرار التصور التاريخي الألماني عن الذات الأجنبية. وعليه، فإن الاستشراق الألماني حتى في فترة ما بعد الاستعمار، ظل خطاب مركزية أوروبية ألمانية ولا يختلف كثيرا عن الاستشراق الفرنسي والبريطاني الأمريكي المعاصر، رغم طابعه الأكاديمي الظاهر.

الكتاب: الشرق في الذاكرة الحضارية الألمانية في القرنين التاسع عشر والحادي والعشرين

الكاتب: زهير سوكاح.

اللغة: الألمانية.

السنة: ٢٠١٩.

دار النشر: بيتر لانغ، ٢٠١٩، ألمانيا، ٢٢٨ صفحة.

باحث في الدراسات الثقافية المقارنة - الرباط المغرب

إصدارات عالمية جديدة

آخر الإصدارات في اللغة الفرنسية
سعيد بوكرامي

– الكتاب: «فقدان الأرض»
– المؤلف: ناثانيل ريتش
– الناشر: دار سوي، فرنسا، ٢٠١٩
– عدد الصفحات: ٢٨٨ صفحة

في العام ١٩٧٩، أصبح الجميع يعرف كل شيء عن ظاهرة الاحتباس الحراري معرفة جيدة؛ إذ حددت الجوانب الرئيسية للمشكلة دون نقاش ممكن، وعمل المتخصصون، بعيدًا عن الجدال حول تقصي الحقائق، على تحسين النتائج. إذن فقبل ثلاثين عامًا كان بإمكاننا إنقاذ الأرض، ومع ذلك، لم نفعل شيئًا. وبعد سنوات من التحقيق، وأكثر من مائة مقابلة بدعم من مؤسسة بوليتزر، يروي ناثانيل ريتش كيف فشل الكوكب عن موعده مع المناخ، وكيف على الرغم من الجهود التي بذلها العديد من المحذرين، والمصالح المتوافقة في بعض الأحيان، وغالبًا ما تكون متناقضة، بما في ذلك الصناعة البترولية، لم يستطع أحد عمل شيء لوقف تغير المناخ.
فقدان الأرض وثيقة للتاريخ لا غنى عنها ومثيرة. هي حكايتنا. سردٌ أخاذ يبدو فيه المؤلف أنه يضع القارئ على طاولة المفاوضات ليجعله يسمع صرخات الإنذار وصمت الجناة ومماطلة الضمير وقوة الجمود والتنازل، شيئًا فشيئًا يقربنا من الكارثة. إن فقدان الأرض ليس مجرد كتاب قاس عن الفرص التاريخية الضائعة، بل هو أيضًا تقييم واضح ومفصل لكيفية وصولنا إلى هناك، وما يمكننا فعله وما يجب علينا فعله قبل ذلك.. إنها حقا محاولات بعد فوات الأوان.
ناثانييل ريتش صحافي مشهور في صحيفة نيويورك تايمز. كتابته مفتونة بجاذبية المفارقة ونتائجها التي تحدثها الكوارث على المجتمع المعاصر، يتساءل في مقالاته باستمرار عن الطريقة التي يتكيف بها الإنسان مع الكارثة.

– الكتاب: «الحياة الموت» الحلقة الدراسية (١٩٧٥–١٩٧٦)
– المؤلف: جاك دريدا
– الناشر: دار سوي، فرنسا، ٢٠١٩
– عدد الصفحات: ٣٧٢ صفحة

الحياة الموت هي واحدة من الحلقات الدراسية الأكثر غنى لجاك دريدا؛ لأنها تضع على المحك قضية فلسفية شائكة: التفكير في الحياة والموت بحكم المنطق الذي لا يعتبر الموت نقيضا للحياة. أليس نقاء الحياة، في جوهره، معكرا لإمكانية الموت، حيث لا يمكن أن يموت إلا شخص حي؟ هذا هو سؤال الفيلسوف. وهو يعاكس المنظور الكلاسيكي، يتعهد دريدا بأن يعلم طلابه أن الموت، على العكس من ذلك، هو الذي يجعل الحياة ممكنة.
وبواسطة ١٤ حصة تثقيفية ومثيرة ألقاها دريدا خلال العامي ١٩٧٥–١٩٧٦، قام دريدا بتفكيك المعارضة التقليدية بين الحياة والموت من خلال قراءات متعمدة متعددة ومتنوعة التخصصات، تلتقي وتتقاطع فيها أفكاره بفكر وفلسفة (هيجل، نيتشه، هايدغر) وعلم نظرية العلوم (جورج كانغيليم)، وفي المواجهة مع علم الوراثة المعاصر لدى (فرانسوا يعقوب) والتحليل النفسي (الفرويدي حول الحياة والموت).
لم يسبق لدريدا أن نشر هذه الحلقات الدراسية؛ لهذا يعد ما قام به الباحثان باسكال آن بارو وبيجي كاموف عملا جبارا؛ لأنهما تمكنا من استخراج ونشر كنز فلسفي كاد يطمره النسيان.

– الكتاب: «دُوَار الكون: تاريخ موجز للكون»
– المؤلف: ترينه شوان ثوان
– الناشر: دار فلاماريون، فرنسا، ٢٠١٩
– عدد الصفحات: ٤٦٤ صفحة

عندما انذهل الإنسان بروعة الليل، استمر في النظر إلى السماء في محاولة لتنظيمها ومراقبة انتظام بعض دورات القمر، والفصول، والانقلابات، والكسوف، إلخ؛ فقام بصياغة مفهوم متحرك للكون، استنادًا إلى مفهومين أساسيين لوصف نسيج الواقع: الفضاء والزمن. هذه هي القصة العظيمة التي يقدمها لنا عالم الفيزياء الفلكية ترينه شوان ثوان، بين علم الآثار الفلكي وعلم الفيزياء الفلكية الحالي.
وفي هذا النص المزود بالصور التوضيحية، يروي لنا الكاتب المآثر الفلكية لأسلافنا: ستونهنج، الكرنك، الجيزه... إلخ، ناهيك عن التقاويم الكونية للهنود الأمريكيين والأهرامات الغامضة لتشيتشن إيتزا. وبين هذا وذاك يصف انفجار العلم الحديث، بدءا بحدوس كوبرنيك إلى الفضاء المذهل لآينشتاين الذي كرس مفهوم النسبية.
وعلى طول هذه الدراسة الشارحة المستفيضة عن أسرار الكون، يشرح الباحث العقبات التي يواجهها الباحثون اليوم: هل الكون محدود أم لا نهائي؟ هل هناك لحظة الصفر؟ ولماذا الكون منظم بشكل دقيق؟ إن هذا التاريخ الموجز عن السماء لا يكتفي بإضاءة هذه الأسئلة المسببة للدوار، فحسب، بل إنه يحتفل أيضًا بالوحدة المدفونة في أعماق ذاكرتنا وهي التحالف الأبدي بين الإنسان والكون.
يقدم لنا أستاذ الفيزياء الفلكية في جامعة فيرجينيا والباحث في معهد الفيزياء الفلكية في باريس والعضو في جامعة باريس متعددة التخصصات كتابا مرجعيا مذهلا، سردا ومعرفة قل نظيره في هذا المجال.

إصدارات عالمية جديدة

– الكتاب: «ما تُعلمنا الصين»
– المؤلف: ليون فاندرميش
– الناشر: دار غاليمار، فرنسا، ٢٠١٩
– عدد الصفحات: ١٧٦ صفحة

هذا النص القصير يختصر حياة مديدة من البحث العظيم الذي أنجزه عالم الصينيات الفرنسي ليون فاندرميش (٩١ عاما). يجيب فيه عن السؤال الملح والدائم حول ما إذا كانت الصين تمثل «مكانا آخر» لا يمكن الوصول إلى فهمه من طرف الغربيين (وهذا ما أطلق عليه فوكو «فضاء آخر»)، أو إذا كانت هناك طريقة لفهمه تعيده إلى إنسانيتنا المشتركة.

يدرس فاندرميش المشكلة من ثلاث جهات: أولاً نظرياته حول اللغة، والتي تُستمد في الصين من الممارسات المقدسة؛ مما يؤدي إلى الفصل التام بين اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، على عكس اللغة الغربية، الهند أوروبية، والتي تأسست على المنطق الأرسطي. هذا ما بلوره المؤلف في كتابه «عقلان للفكر الصيني» في العام ٢٠١٣. ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى التنظيم الاجتماعي، وإسهامه الشخصي جدا، استنادًا إلى نظام من الطقوس تمت الإطاحة به بواسطة أشكال الإنتاج الصينية التي تختلف اختلافًا كبيرًا عن الأشكال الغربية. ثم يكمل مقاربته من خلال تحليل حضور الجانب الديني في الصين، وعدم وجود فاصل بين العالم البشري والعالم الإلهي. رغم توجه الدولة نحو أيديولوجية شيوعية، إلا أن الصين اجترحت لنفسها معادلات توفيقية يتكامل فيها الإنسان والمادة والروح، وهذا يؤكده الحضور الجوهري للفكر الكونفوشيوسي على مستويات حيوية عديدة.

آخر الإصدارات باللغة الإنجليزية
محمد الشيخ

– الكتاب: «سقراط في الكهف»
– المؤلف: مؤلف جماعي
– الناشر: بالغريف ماكميلان، ٢٠١٩

شغل سقراط أهل زمانه حيا وميتا. وها هو لا يزال يشغل أبناء زماننا اليوم. هذا كتاب جماعي مداره على حضور سقراط في محاورات تلميذه أفلاطون والإشكالات الناجمة عن هذا الحضور: لماذا يحاور سقراط في هذه المحاورات أناسا غير ناضجين للتفلسف، وما دواعيه إلى ذلك: أهي دواع أخلاقية أم وعظية أم عشقية أم تربوية أم فكرية؟ ومهما يكن من أمر، هل كانت دواعي الرجل تتمثل في السعي إلى نشر حكمته بين محاوريه؟ أم هل يحتاج الأمر، يا ترى، إلى تفاسير أخرى مغيَّبة؟ يُحاول ثلة من المتخصصين –في هذا الكتاب– في الفلسفة القديمة إثارة مثل هذه الأسئلة وغيرها. وهي تعود إلى تفانين نصوص أفلاطون ودقائقها، فتمنحنا خريطة فكرية دقيقة تحاول معالجة هذه المسائل، وبسطها للطلاب المبتدئين كما للباحثين المنتهين.

– الكتاب: «تقي إيراني: عالم موسوعي في برلين ما بين الحربين»
– المؤلف: يونس جلالي
– الناشر: بالغريف ماكميلان، ٢٠١٩

يستحق العالم والفيلسوف الإيراني تقي إيراني (١٩٠٣–١٩٤٠) أكثر من كتاب وكتاب، وذلك لغرابة مسار حياته ومأساوية مآله. فهو مناضل مدني، وعالم دقيق، ومثقف ملتزم. وقد كان وجها كبيرا من وجوه إيران في ما بين الحربين العالميتين. إذ كان الرجل شاهدا على أهم هزتين سياسيتين في القرن العشرين: صعود نجم آل بهلوي وسقوط نجم حكومة فايمار. وقد انتقل هذا العالم من البحث في العلم الأساسي إلى الانخراط في النزعتين اليسارية والسلمية؛ مما أدى إلى توقيفه وموته في السجن. ويتقصى مؤلف الكتاب رحلة هذا العالم النشيط سياسيا من طهران إلى برلين؛ حيث في العشرينيات من القرن الماضي التقى طريقه مع طريق علماء ألمان كبار، بمن فيهم ماكس بلانك وألبير إينشتاين وفردريش روزن. كما نشر الرجل أبحاثا دورية في علم النفس والفلسفة السياسية. وفي الثلاثينيات من القرن الماضي تقرر مصيره التراجيدي بعد التقارب بين رضا شاه والرايخ الثالث، حين ذهب ضحية قمع ضد مناضلي اليسار والنقابات. وتقدم جملة حياته منظارا مكبرا يمكن من خلاله رؤية التاريخ الفكري والسياسي الإيراني الحديث.

– الكتاب: «المؤنس في التأويليات»
– المؤلف: تأليف جماعي
– الناشر: منشورات جامعة كامبريدج، ٢٠١٩

هذا كتاب لا غنى عنه لكل من يشتغل على مسائل الفهم والتأويل والترجمة في الفكر العربي الإسلامي أو في الفكر الغربي؛ فما أحوجنا إليه في ثقافتنا العربية ذات التراث العريق في هذه المسائل، والتي لا تزال تحتاج إلى إبراز. هو دليل أو مؤنس أو هادي إلى التأويليات، من حيث هي مبحث التأويل، ومن حيث هي أحد فروع الفلسفة الأساسية. أكثر من هذا، من حيث أن التأويليات مكون أساسي من المكونات المنهجية للعلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، شأن علم التاريخ وعلم الإنسان وتاريخ الفن والنقد الأدبي. وقد ائتلف جمع من كبار المتخصصين في التأويليات لتأليف هذا الكتاب الجامع الذي مداره على أهم مفاهيم ومبادئ التأويليات، وعلى تاريخ هذا المبحث الجديد القديم، مُبينين أهمية هذا المبحث في الفلسفة اليوم، مبرزين سبل النهل منه لإثراء مباحث التفاعل الثقافي بين الأمم وبين التخصصات وبين الثقافات.

حالياً في الأسواق..

مجلة التفاهم

عنوان العدد: الصلاح والفساد في الإنسان والعمران

المحاور

–**الصلاح والفساد في الإنسان والعمران** – عبد الرحمن السالمي
– **مقدمات الإصلاح بين جدلية الوعي وقوانين التاريخ** – عبدالحميد عشاق
– **الاستخلاف والعمران في ضرورة الوعي بقيم وسنن النهوض والسقوط** – سعيد شبار
– **الفساد والأمن البيئي من منظور إسلامي** – سامي عطا عبدالرحمن
– **أزمة الأنظمة الفكرية الكبرى المعاصرة: الديمقراطية الليبرالية والرأسمالية والشعبوية** – علي الدين هلال
– **العولمة والشعبويات ومصائر الديمقراطية وحكم القانون في الغرب** – ياسر قنصوه
– **النقاشات الفلسفية القارية المعاصرة حول مسألة مستقبل الإنسان ومسألة القيم في عصر الثورة البيو تقنية** – محمد الشيخ
– **أزمة البيئة والتحديات الأخلاقية العالمية المعاصرة .. قراءة فلسفية** – وجدي نسيم
– **العقول الذكية وعبودية الآلة والمصائر الإنسانية بين الرأسمالية والشمولية** – محمد بالراشد
– **الفضاءات الإلكترونية من المعضلات الأخلاقية إلى الآثار السلبية** – أحمد زايد
– **ثورة الزنج وثورات القرامطة.. الشعبويات والتفسير الاجتماعي** – رضوان السيد
– **موقع المسلمين في نظام العالم والبحث عن البدائل** – عز الدين عناية

دراسات

– **التكامل المعرفي بين العلوم اللغوية والعلوم الشرعية عند الشاطبي** – عبدالرحمن يجيوي

وجهات نظر

– **رأس المال الثقافي مقاربة سوسيولوجية** – خالد كاظم أبو دوح
– **إدغار موران وثورات التقنية والمستقبل** – محمد بن سعيد الحجري

آفاق

– **الإسلام ووعي الحرية** – عبدالرحمن السالمي

مدن وثقافات

– **طليطلة في العصر الإسلامي** – عصام السعيد

الإسلام والعالم

– **مسألة العصور الوسطى الاوربية والإسلامية**
إعداد: رضوان السيد

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.

مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ – ٢٤٦٤٤٠٣٢ ٩٦٨+ ، فاكس : ٢٤٦٠٥٧٩٩ ٩٦٨+
البريد الإلكتروني : tasamoh@gmail.com - al.tafahoom@gmail.com - www.altafahom.net